فضيلة الدكتور
عبد الحليم محمود

موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة



موقف الإسلام

من

الفن والعلم والفلسفة

الناشـــــر : **دار الرشـــاد**

العنـــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة

تليفـــون : ٣٩٣٤٦٠٥

رقم الإيداع : ٤٦٤٠ /٢٠٠٣

الترقيم الدولى : 977 - 364 - 005 - 1

الجمــــع : **آرمـس**

العنـــوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة ـ القاهرة

تليفـــون : ٧٩٦٤٤٠٤

الطبـــع : **عربية للطباعة والنشر**

العنـــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفـــون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣

الطبعة الثانية : ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م(الأولى للدار)

مـراجعـــة : **محمد دياب**

غـــلاف : **وائل حمدان**

خطـــوط : **لمعى فهيم**

موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة

فضيلة الدكتور
عبد الحليم محمود




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كثيراً ما يلتبس على بعض الناس المفهوم الحقيقى لزاوية من زوايا الثقافة، وكثيراً ما يلتبس عليهم أيضاً موقف الدين من جانب من جوانبها.

ونحب هنا - بتوفيق الله - أن نتحدث فى صورة تخطيط عام، أو فى إجمال مُجْمَل عن علاقة الدين ببقية موضوعات المعرفة.

ولعلَّه ينبغى - من أجل الوضوح - أن نقول كلمة فى تعريف كل من هذه الموضوعات.

ولسنا بصدد تعريفات نناقش فيها، ونجادل، ونُورد ما سبق منها، باحثين مُتفحِّصين، أو ناقدين مُختبِرين..

كلاَّ، وإنما نُورد تعريفات موجزة تعطى الفكرة، ولا تُجانب الصواب إن شاء الله.

ونقول:

١- إن ما بُنِىَ على الوحى: هو دينٌ، وهو شريعةٌ.

٢- وما كانَ مَرَدُّه إلى الذوق والعَاطفة والوجدان، فهو فنٌّ.

٣- والقواعد والقوانين - التى قامت على الملاحظة والتجربة والاستقراء - عِلْمٌ.

٤ـ أما مجال ما وراء الطبيعة ، ومجال الأخلاق بمعناها الشامل ، هذا المعنى الذى يدخل فى نطاقه التشريع ونظام المجتمع ، فإن ما بُنى من ذلك كله على العقل والبحث فهو : فلسفة .

وعلى أساس من هذه التعريفات الموجزة ـ التى لا نشك فى أنها لا تبتعد عن الصواب ـ نسير فى هذا البحث ، بإذن الله .

دكتور

عبد الحليم محمود

عن الفن

*** ما موقف الدين من الفن ؟**

وجوانب الفن متعددة . تشمل :

- الشعر .
- القصص والروايات .
- التصوير .
- النحت .
- السينما .
- المسرح ... إلخ .

*** ما موقف الدين من ذلك كله ؟ ..**

١ ـ ونبدأ بالشعر

يقول الله تعالى عن رسوله ﷺ : ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**﴾[١] .

لقد نفى سبحانه أنه علَّمه الشعر . فهل لذلك من تعليل ؟

لقد قال الله تعالى : ﴿**وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾[٢] .

هناك ـ إذن ـ مستويات من الإنسانية ، هي في سموها ترتفع عن مستوى الشعر .

ومن هذه المستويات :

مستوى الرسل ، ولعل مستوى الصِّدِّيقية ـ في قمته ـ لا يناسبه أيضاً مستوى الشعر ، ولم يكن أبو بكر ، رضوان الله عليه ـ وهو قمة الصِّدِّيقين ـ شاعراً .

ولكنَّ الله سبحانه وتعالى تحدَّث عن مستوى محمد ﷺ أي : تحدَّث عن أعلى مستوى في المخلوقات .

يقول رسول الله ﷺ ـ فيما رواه الإمام مسلم ـ :

« **إنَّ الله اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إبْرَاهِيمَ إسْمَاعِيلَ، واصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَة، واصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيشاً، واصْطَفَى مِنْ قُرَيشٍ بَنِي هَاشِمٍ، واصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ** » .

(١ ، ٢) سورة يس : ٦٩ .

وكل من يحاول ـ فى صدق ـ أن يرتقى صاعداً فى المستوى الروحى ليكون الرسول ﷺ له أسوة وقدوة، فإنه يتنزَّه شيئاً فشيئاً عن الشعر.

إن الله سبحانه لم يعلِّم رسوله ﷺ الشعر، ولم يُنشئ رسول الله ﷺ الشعر، بل وكان ﷺ يتحرَّج عن رواية الشعر.

يقول الإمام الآلوسى:

« لا يُرَدُّ أنه عليه السلام قال يوم حنين، وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث آخذ بزمامها ولم يبقَ معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الناس إلا قليل: «**أنا النبىُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المطَّلب**»، لأنَّا لا نسلِّم أنه شعر، فقد عرَّفوه بأنه الكَلام المقفَّى الموزون على سبيل القصد، وهذا مما اتفق له عليه الصلاة والسلام من غير قصد لوزنه، ومثله يقع كثيراً فى الكلام المنثور، ولا يسمَّى شعراً، ولا قائله شاعراً ».

ولكن الآية الكريمة ـ على كل حال ـ لا تأمر الرسول ﷺ بعدم قوله.. يقول صاحب «روح المعانى»:

« وليس فى الآية ما يدل على أن النبى ﷺ لا ينبغى له التكلم بشعر قاله بعض الشعراء والتمثُّل به، وفى الأخبار ما يدل على وقوع التكلم بالبيت متزناً نادراً، كما روى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنشد بيت ابن رواحة:

يَبِيتُ يُجَافِى جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ المَضَاجِعُ

وإنشـاده إياه كـذلك مـذكـور فى «البـحـر»، وروى أنه ﷺ أصاب إصبعه الشريفة حَجَرٌ في بعض غزواته فدميت، فتَمثَّل بقول الوليد بن المغيرة (على ما قاله ابن هشام في السيرة، أو ابن رواحة على ما صححه ابن الجوزى):

مَا أَنْتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ما لَقِيتْ

وأحياناً كان يتمثَّل رسول الله ﷺ ببيت من الشعر، ولكنه يتمثَّل به غير موزون.. ومن ذلك ما روى أنه - عليه الصلاة والسلام - أنشد:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأَخْبَارِ[1]

فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا يا رسول الله؟

فقال - عليه الصلاة والسلام -:

«إنِّي واللهِ ما أنا بشاعرٍ، ولا ينبغي لي».

ويتحدث المفسِّرون والمحدِّثون عن أمثال هذا، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، عن عائشة قالت:

«كان رسول الله ﷺ إذا استراثَ[2] الخبرَ تَمثَّل ببيت طرفة: ويأتيك مَنْ لم تزوِّد بالأخبار».

---

(١) ورد هذا البيت فى معلَّقة الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد، هكذا:

سَتُبْدِى لكَ الأيام ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار من لم تزوِّد

(٢) استراث: استبطأ، والمراد أنه لابد أن يُعرف الخبر مهما تأخر.

وأخرج ابن سعد، وابن أبى حاتم، عن الحسن أنه ﷺ كان يتمثَّل بهذا البيت: «**كَفَى بالإسلامِ والشَّيبِ للمرء نَاهِيا**».

فقال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله، ما علَّمك الشعر، وما ينبغى لك.

وأخرج ابن سعيد، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، أن النبى ﷺ قال للعباس بن مرداس: **أرأيتَ قولك:**

أَتَجْعَلُ نَهْبِى ونَهْبَ العَبِيـ ــدِ بَيْنَ الأَقْــرَعِ وَعُيَيْــنَة

فقال له أبو بكر رضى الله تعالى عنه: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما أنت بشاعر، ولا راوية، ولا ينبغى لك، إنما قال: «**بينَ عُيينة والأقرع**».

وروى أنه قيل له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: مَنْ أشْعَرُ الناس؟

فقال: **الذى يقول:**

أَلَمْ تَرَيَانِى كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً وَجَدْتُ بِهَا وإنْ لَمْ تُطَيَّبْ طِيْبًا

والشطر الثانى من البيت هو:

وَجَدْتُ بِهَا طِيْباً وإنْ لَمْ تُطَيَّبِ.

وأخرج البيهقى فى سننه بسند فيه مجهول، عن عائشة قالت:

«ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً:

تَفَاءَلْ بِمَا تَهْوَى يَكُنْ، فَلَقَلَّمَا يُقَــالُ لِشَىْءٍ: كَانَ، إلاَّ تَحَـقَّق

قالت عائشة: ولَمْ يَقُلْ «تَحقَّقا» لئلاَّ يعربه فيصير شعراً».

ولقد كان المكيون يحاولون أن يقللوا من شأن القرآن الكريم، ويقللوا من شأن الرسول ﷺ . فكان من وسائلهم فى ذلك قولهم عن القرآن أنه شعر، وعن الرسول أنه شاعر، وكان القرآن يرد عليهم فى ذلك . .

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾[1] .

ولقد كان كثير من العرب أنفسهم - حتى غير المسلمين منهم - ينفون عن القرآن أنه شعر، وعن الرسول ﷺ أنه شاعر .

هذا فيما يتعلق بالرسول ﷺ . . أما فيما يتعلق بالشعر نفسه فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾[2] .

ثم يعلل الله تعالى هذه القضية ، فيقول :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[3] .

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[4] .

ومن الطرائف التى لها معناها العميق لمن يتدبرها - رغم أنها طرائف - ما يرويه الحافظ ابن كثير، قال :

---

(١) سورة الحاقة : ٣٨ - ٤٣ .
(٢) سورة الشعراء : ٢٢٤ .
(٣) سورة الشعراء : ٢٢٥ .
(٤) سورة الشعراء : ٢٢٦ .

اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حَدّاً. هل يقام عليه الحَدُّ بهذا الاعتراف أم لا ؟ . . لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ . .

ـ على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق، ومحمد بن سعد فى (الطبقات) والزبير بن بكار فى كتاب (الفكاهة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ استعمل النعمان بن عَدىّ بن نضلة على ميسان، من أرض البصرة. وكان يقول الشعر، فقال :

أَلاَ هَلْ أَتَى الحَسْنَاءَ أنَّ خَليلَهَا ... بمَيْسَانَ يُسْقَى فِى زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إذَا شِئْتُ غَنَّتْنِى دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... وَرَقَّاصَةٌ تَحْثُو عَلَى كُلِّ مَبْسِمِ
فَإنْ كُنْتَ نَدْمَانِى فَبالأَكْبَرِ اسْقِنِى ... وَلاَ تَسْقِنِى بِالأَصْغَرِ المُتَلَثِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

فلمَّا بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، قال : إىْ والله ! إنه ليسوؤنى ذلك، ومَنْ لقيه فليخبره أنى قد عزلته.

وكَتب إليه عمر :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾[1].

أما بعد، فقد بلغنى قولك :

---

(١) سورة غافر : ١ ـ ٣.

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ ... تَنَادُمُنَا بِالجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

وأَيْمُ الله ! إنه ليسوؤنى ذلك ، وقد عزلتك» .

فلما قدم على عمر بكَّتَهُ بهذا الشعر .

قال : والله - يا أمير المؤمنين - ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح علَى لسانى .

فقال عمر : أظن ذلك ، ولكنْ - والله - لا تعمل لى عملاً أبداً ؛ وقد قلتَ ما قلتَ ! .

فلم يُذكر أنه حَدَّه على الشراب - وقد ضمَّنه شعره - لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولكنْ ذَمَّه عمر ، ولامه على ذلك ، وعزله به .

وحكى الزمخشرى ، عن الفرزدق ، أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ... وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الخِتَامِ

فقال : قد وجبَ عليك الحد .

فقال : يا أمير المؤمنين ، قد دَرَأَ الله عنِّى الحدَّ بقوله :

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾(١) .

وما من شك فى أن وجهة نظر الفاروق رضي الله عنه أن من يتولَّ ولاية لا يجوز له أن يكون عابثاً بالقول أو بالسلوك .

---

(١) سورة الشعراء : ٢٢٦ .

وإنه لمن المؤسف أن يوجد فى البلاد الإسلامية الولاة الذين دَيْدَنُهُم العبث، يجاهرون به أحياناً، ويُسرُّون به أحياناً، ولكن أمرهم حين يُسرُّون به يعلنه ندماؤهم وَأخدانهم، وهؤلاء لا يصلح بهم مجتمَع، ولا تستقيم لهم به أمور.

وإذا كان الشعر لا ينبغى لبعض المستويات، فهل نأخذ من ذلك أنه حرام؟..

أم هل نأخذ من ذلك أنه مكروه؟..

نحب قبل الإجابة عن هذا السؤال أن نذكر أن رسول الله ﷺ كان يشجِّع حسان بن ثابت على قول الشعر، ويشجِّع غيره من شعراء الصحابة على قوله دفاعاً عن الرسول ﷺ، ورداً على المشركين.

وقد أنصت الرسول ﷺ لكعب بن زهير وهو ينشد قصيدته المشهورة:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِى اليَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وفيها يمدح كعب بن زهير الرسول ﷺ وصحبه بقوله:

إنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ به مُهَنَّدٌ منْ سُيُوف اللَّه مَسْلُولُ

فى فتْيَة منْ قُرَيْش قَالَ قَائلُهُمْ ببَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا: زُولُوا

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ ولا كُشُفٌ يَوْمَ اللقَاءِ وَلاَ مِيلٌ مَعَازِيلُ

وقد بلغ من إعجاب الرسول ﷺ بهذه القصيدة، وهذا المديح

الجميل، أن خلع ﷺ عليه بُرْدَته الشريفة التى احتفظ بها، واحتفظ بها ورثته من بعده زمناً طويلاً.

وهناك فى سيرة الرسول ﷺ القصائد العصماء من أمثال البُرْدَة والهمزية.. إنها دُرَرٌ نفيسة ترضى الذوق والوجدان والشعور الراقى! وإننا جميعاً نسعد حينما نقرأ لشوقى فى معارضته لهمزية البوصيرى قوله:

فَإِذَا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالجُود المَدَى ... وَفَعَلْتَ مَا لاَ تَفْعَلُ الأَنْوَاءُ(١)

وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِراً وَمُقَدِّراً ... لاَ يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الجُهَلاءُ

وَإِذَا رَحِمْتَ؛ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ.. ... هَذَانِ فى الدُّنْيَا هُمَا الرُّحَمَاءُ

وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّمَا هِىَ غَضْبَةٌ ... فى الحَقِّ لاَ ضِغْنٌ ولا بَغْضَاءُ

وَإِذَا رَضِيْتَ فَذَاكَ فى مَرْضَاته ... وَرِضَا الكَرِيمِ تَحَلُّمٌ وَرِيَاءُ

وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ ... تَعْرُو النَّدَى(٢) وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ

وَإِذَا قَضَيْتَ فَلاَ ارْتِيَابَ كَأَنَّمَا ... جَاءَ الخُصُومَ مِنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ

وَإِذَا حَمَيْتَ المَاءَ لَمْ يُورَدْ وَلَوْ ... أَنَّ القَيَاصِرَ وَالمُلُوكَ ظِمَاءُ

وَإِذَا أَجَرْتَ فَأَنْتَ بَيْتُ اللَّهِ لَمْ ... يَدْخُلْ عَلَيْهِ المُسْتَجِيرِ عَدَاءُ

---

(١) النَّوء: المطر الشديد، أو العطاء. والمراد: وصفه ﷺ بالكرم والجود والسخاء وكثرة الخير والعطاء.

(٢) أى أن الخشوع يعمُّ المكان كله بمن فيه.

وَإذَا مَلَكْتَ النَّفْسَ قُمْتَ بِبِرِّهَا ... وَلَوَ انَّ مَا مَلَكَتْ يَدَاكَ الشَّاءُ

وَإذَا بَنَيْتَ فَخَيْرُ زَوْجٍ عِشْرَةً ... وَإذَا ابْتَنَيْتَ فَدُونَكَ الآبَاءُ(١)

وَإذَا صَحِبْتَ رَأَى الوَفَاءَ مُجَسَّماً ... فى بُرْدِكَ الأَصْحَابُ والخُلَطَاءُ

وَإذَا أَخَذْتَ العَهْدَ أَوْ أَعْطَيْتَهُ ... فَجَمِيعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ

وَإذَا مَشَيْتَ إلَى العِدَا فَغَضَنْفَرٌ ... وَإذَا جَرَيْتَ فَإنَّكَ النَّكْبَاءُ(٢)

وَتَمُدُّ حِلْمَكَ للسَّفِيهِ مُدَارِياً ... حَتَّى يَضِيقَ بِعَفْوِكَ السُّفَهَاءُ

فِى كُلِّ نَفْسٍ مِنْ سُطَاكَ (٣) مَهَابَةٌ ... وَلِكُلِّ نَفْسٍ فِى نَدَاكَ رَجَاءُ

* * *

ويمكن أن يسأل إنسان : وماذا كان موقف الصحابة والتابعين من الشعر ؟ . .

إن موقفهم هو موقف الرسول ﷺ منه ، وعن ذلك نذكر ما يلى :

عن عمر الرّكاء ـ بسنده ـ عن الجوهرى والمهلبى ، قال :

بَيْنَا ابن عباس فى المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين

(١) البناء بالأهل : الدخول عليهن . والابتناء : أن يصبح ذا بنين .

(٢) النكباء : ريح تهبّ بين ريحين. (٣) سُطاً : جمع سطوة.

مصبوغين موردين أو ممصرين (فيهما شيء من صفرة) حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس فقال: أنشدْنا ، فأنشدَه:

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ   غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجِّرُ

حتى أتى على آخرها ، فأقبل عليه ابن الأزرق فقال: الله يابن عباس! إنَّا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد، نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك:

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ   فَيَخْزَى، وَأَمَّا بِالعَشِيِّ فَيَخْسِرُ

فقال: ليس هكذا قال.

قال: فكيف قال؟

قال:

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ   فَيَضْحَى، وَأَمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

فقال: ما أراك إلا وقد حفظت البيت!

قال: أجل ، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها!

قال: فإنى أشاء.

فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها.

وفى رواية: أن ابن عباس أنشدها من أولها إلى آخرها ، ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة، وما سمعها قَطُّ إلا تلك المرة صفحاً (أى: مروراً). قال: وهذا غاية الذكاء!

فقال له بعضهم : ما رأيت أذكى منك - قَطُّ - !

فقال : لكنى ما رأيت - قَطُّ - أذكى من على بن أبى طالب ﷺ .

وكان ابن عباس يقول : ما سمعت شيئاً قَطُّ إلا رويته ، وإنى لأسْمَعُ صوتَ النائحة فأسدُّ أذنى كراهةَ أن أحفظ ما تقول !

قال : ولامه بعض أصحابه فى حفظ هذه القصيدة : (أمن آل نُعْم . . .) فقال :

إنَّا نستجيدها .

قال الزبير بن بكار فى خبره عن عمه : فكان ابن عباس بعد ذلك كثيراً ما يقول : هل أحْدَثَ هذا المغيرىُّ شيئاً بعدنا ؟

قال : وحدثنى عبد الله بن نافع بن ثابت ، قال :

كان عبد الله بن الزبير إذا سمع قول عمر بن أبى ربيعة (فيضحى وأما بالعشىِّ فيخصر) قال : لا ، بل (فيخزى ، وأما بالعشىِّ فيخسر) .

وفى هذا الخبر : ثم أقبل - أى : ابن عباس - عَلَى ابن أبى ربيعة فقال :

أنشدْ ، فأنشده : (تشطّ غداً دار جيراننا) وسكت . فقال ابن عباس : «وللدار بعد غد أبعد» . فقال له عمر : كذلك قلتُ - أصلحك الله - أفسمعته ؟ . قال : لا ، ولكن كذلك ينبغى .

وعن هشام الكلبى أن عمر بن أبى ربيعة أتى عبد الله بن عباس وهو فى المسجد الحرام فقال : متَّعنى الله بك ! إن نفسى قد تاقت إلى قول الشعر ونازعتنى إليه ، وقد قلت منه شيئاً أحببت أن تسمعه وتستره علىَّ !

فقال : أنشدني . فأنشده : (أمن آل نعم أنت غاد فمبكر) .

فقال له : أنت شاعر يا ابن أخي ، فقل ما شئت . قال : وأنشد عمر هذه القصيدة طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري وهو راكب ، فوقف وما زال شانقاً ناقته حتى كُتبت له !

وعن عبد الجبار بن سعيد المساحقي ، عن أبيه ، قال : دخلت مسجد رسول الله ﷺ مع نوفل بن مساحق ، فإنه لمعتمد على يدي إذ مررنا بسعيد بن المسيِّب في مجلسه ، وحوله جلساؤه ، فسلَّمنا عليه فردَّ علينا ، ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد ، مَنْ أشْعَرُ : صاحبنا أم صاحبكم ؟

(يريد : عبد الله بن قيس ، أمْ عمر بن أبي ربيعة؟) .

فقال نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد ؟

قال : حين يقول صاحبنا :

خَلِيلَيَّ مَا بَالُ المَطَايَا كَأَنَّمَا ... نَرَاهَا عَلَى الأَدْبَارِ بِالقَوْمِ تَنْكُصُ

وَقَدْ قُطِعَتْ أَعْنَاقُهُنَّ صَبَابَةً ... فَأَنْفُسُنَا مِمَّا يُلاَقِينَ شُخَّصُ

وَقَدْ أَتْعَبَ الحَادِي سُرَاهُنَّ وَانْتَحَى ... بِهِنَّ فَمَا يَأْلُو عَجُولٌ مُقَلِّصُ[1]

يَزِدْنَ بِنَا قُرْباً فَيَزْدَادُ شَوْقُنَا ... إِذَا زَادَ طُولُ العَهْدِ وَالبُعْدِ يَنْقُصُ

ويقول صاحبك ما شئت .

فقال له نوفل : صاحبكم أشعر في الغزل ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر .

---

(١) المقلِّص : المشمِّر الجادّ في سيره .

فقال سعيد : صدقت .

فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر ، جعل سعيد يستغفر الله ويعقد بيده حتى وَفَّى مائة ، فقال البكرى فى حديثه عن عبد الجبار : قال مسلم : فلما انصرفنا قلت لنوفل : أتراه استغفر الله من إنشاد الشعر فى مسجد رسول الله ﷺ ؟

فقال : كَلاَّ ! هو كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر فيه . ولكن أحسب ذلك للفخر بصاحبه .

بعد كل ذلك نتساءل : هل موقف الدين من الشعر : الإباحة إنشاءً ، وإنشاداً ، وسماعاً ، دون قيد أو شرط ؟

كَلاَّ ! . .

يقول الله تعالى :

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[(١)] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾[(٢)] .

---

(١) سورة يس : ٦٩ ، ٧٠ . (٢) سورة الشعراء : ٢٢٤ـ ٢٢٧ .

لقد تحدثنا عن أن هناك مستويات ، هى من الكمال بحيث لا يتناسب معها الشعر ، وذلك مثل مستوى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وكلام الله سبحانه وتعالى يتنزه مستواه عن مستوى الشعر ، ولكن الآيتين الأوليين لا توحيان بتحريم الشعر .

أما الآيات التى وردت فى سورة الشعراء ، فلو اقتصرت على الآيات الثلاث الأولى ، لأوحت بتحريمه ، ولكن ورد بعدها استثناء ؛ فانتفى التحريم المطلق ، وانتفى أيضاً أن يكون الشعر حلالاً مطلقاً .

إن هذا الاستثناء قد وضع شروطاً ، وهذه الشروط توافرت فى كثير من الشعراء : إما فى جميع مراحل حياتهم وإما فى ختامها .

وقد روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال - لحسَّان بن ثابت - :

« **أُهْجُهُمْ** » - (أى : المشركين) - أو قال : « **هَاجِهِمْ ، وجبريلُ مَعَكَ** » .

وأخرج الإمام « أحمد » فى مسنده ، عن كعب بن مالك ، أنه قال للنبى ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل فى الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ . .

فقال النبى ﷺ :

« إنَّ المؤمنَ يُجَاهدُ بِسَيفهِ ولسَانِه ، والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَكَأنَّ ما تَرْمُونَهُمْ بهِ نَضْحُ النَّبْلِ » .

ويبدأ الاستثناء، وتبدأ الشروط بقوله تعالى :

﴿إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(١) .

والإيمان حينما يتمكن من القلب يعصمه من قول الفحشاء، ومن التغنى بها، ولكن الإيمان أحياناً يكون مجرد تصديق لا ينتهى إلى عصمة الإنسان عن قول السوء، ومن أجل ذلك أتبعه الله تعالى بقوله :

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(٢) .

وما من شك فى أن عمل الصالحات من أهم ما يعصم الإنسان عن التردِّى فى مهاوى الضلال ، وأنه مما يمسك الإنسان عن الانحراف عن عمل الصالحات أن يكون الله تعالى مذكوراً دائماً فى شعوره وفى إحساسه ؛ ومن أجل ذلك أضاف الله تعالى قوله :

﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾(٣) .

والله سبحانه وتعالى يأمر فى عدة مواضع من الكتاب الكريم بالذكر الكثير، وهو سبحانه يأمر بذلك فى إطلاق مطلق ، ولكنه سبحانه يذكر أحياناً إشارة موجهة ، أو لمحة منبهة ، أو ملحظاً تعليلياً جليلاً يبين مكانة الذاكرين ، كما يقول تعالى مثلاً :

(١ ، ٢ ، ٣) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

فالله سبحانه وتعالى - هنا - جعل الذكر من سمات أولى الألباب ومن طابعهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢].

فهو سبحانه فى هذه الكلمات القرآنية الكريمة يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾[٣]..

ولم يقل : فإذا قُضى الذكر ، لأن الذكر ممتد ، وقته دائم لا ينقضى ولا يزول ، ثم بيَّن الله تعالى فى آخر الآيتين الكريمتين من أواخر سورة الجمعة ، أن الذكر الكثير سبب الفلاح ، والمفلحون هم الفائزون حقاً ، وهم الذين نالوا مرضاة الله تعالى .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) سورة الجمعة : ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

ونبَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ الشعراء إلى أن مما يأخذ بهم إلى طريق الهدى فى شعرهم : الذكر الكثير .

وشرط آخر ينبغى أن يتوافر فى الشعراء حتى يكونوا ممن يسير على الجادة ، وذلك هو ما عبَّر الله تعالى عنه بقوله :

﴿ وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾[1] .

وهذا الشرط يمكن الحديث فيه كثيراً :

يمكن أن يقال : إن بعض الشعراء أرباب أقلام وليسوا أرباب سيوف ، إن الجرأة تنقصهم ، والإقدام ليس حليفاً لهم ، فشاء الله تعالى أن ينبههم إلى أن المؤمن الصادق شجاع مقدام ، وكما يستعمل لسانه فى قول الحكمة ، فإنه ينبغى أن يستعمله فى الانتصار للحق ، وفى رد الظلم ، وفى الوقوف فى وجه الباطل .

ولا بد ليكون الشاعر شاعراً إسلامياً من أن يتوافر فيه :

* **الإيمان .**
* **العمل الصالح.**
* **الذكر الكثير.**
* **الوقوف فى وجه الظلم.**

وتنتهى هذه الآيات من سورة الشعراء بقوله تعالى :

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[2] .

وهى كلمة أبلغ وأوضح من كل تفسير .

(١ ، ٢) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

ونعود الآن إلى الموضوع من جديد لنرى ما رُوى فيه من آثار، وما قاله أسلافنا من مفسرين ومن فقهاء فى الموضوع.

يقول الإمام الشافعى ﵁ :

« **الشعر نوع من الكلام ، حَسَنُهُ كَحَسَنِ الكلام ، وقَبيحُهُ كقَبيحِ الكلام** ».

ويقول « أبو عمرو » - فيما رواه القرطبى - :

« ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من أولى النُّهَى، وليس أحد من كبار الصحابة. وأهل العلم، وموضع القدوة، إلا وقد قال الشعر، أو تمثَّل به، أو سمعه، فَرضِيَهُ : ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فُحْشٌ ولا خَناً، ولَا لمسلمٍ أذًى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء، لا يحل سماعه ولا قوله».

وروى « أبو هريرة » ﵁ قال :

سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول :

« **أَصْدَقُ كلمةٍ - أو أَشْعَرُ كلمة - قالتها العربُ قولُ لَبِيدٍ:**

ألاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ » .

أخرجه مسلم، وزاد :«**وكاد أُميَّة بن أبى الصَّلْت أن يُسْلِمِ**».

وروى عن « ابن سيرين » أنه أنشد شعراً، فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر ؟

فقال : وَيْلُكَ - يا لُكَع - وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا فى القوافى ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح » .

ويروى الإمام « مسلم » من حديث « عمرو بن الشريد » ، عن أبيه قال : ردفتُ رسول الله ﷺ يوماً فقال :

« **هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُميَّة بن أبى الصَّلْت** ؟ »..

قلت : نعم . قال : «**هيه**» . فأنشدته بيتاً ، فقال : «**هيه**» . . حتى أنشدته مائة بيت .

ومما عَقَّب به صاحب «الجامع لأحكام القرآن» على ذلك قوله :

« وفى هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحِكَم ، والمعانى المستحسنة ، شرعاً وطبعاً ، وإنما استكثر النبى ﷺ من شعر «أميَّة» لأنه كان حكيماً ، ألا ترى قوله - عليه الصلاة والسلام - :

« **وَكَادَ أُمَيَّة بن أبى الصَّلت أنْ يُسْلِم**» . . فأما ما تضمَّن ذكر الله وحده والثناء عليه فذلك مندوب إليه» .

وكانت هناك مواقف محددة لبعض الخلفاء من الشعراء الذين يقولون هجراً ، من ذلك موقف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه - كما ذكر الزبير بن بكار - إذ قال : حدثنى مصعب بن عثمان أن « عمر بن عبد العزيز » - لما ولى الخلافة - لم يكن له هَمٌّ إلا « عمر بن أبى

ربيعة» و «الأحوص» الشاعران فكتب إلى عامله على المدينة : إنى قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابى هذا فاشْدُدْ عليهما ، واحملهما إلىَّ . فلمَّا أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر ، فقال : «هيه . . !» . .

فَلَمْ أَرَ كَالتَّجْمِيرِ مَنْظَرَ نَاظرٍ وَلاَ كَلَيَالِى الحجِّ أَفْلَتْنَ ذَا هَوَى
وَكَمْ مَالِئٍ عَيْنَيْهِ مِنْ شَىْءِ غَيْرِهِ إِذَا رَاحَ نَحْوَ الجَمْرَةِ البِيْضِ كَالدّمَى

أمَا ـ واللهِ ـ لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شىء غيرك ، فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يفلتون ؟ . ثم أمر بنفيه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أو خير من ذلك ؟

فقال : ما هو ؟

قال : أعاهد الله أنى لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء فى شعر أبداً ، وأجدِّد توبة .

فقال : أوَ تفعل ؟

قال : نعم .

فعاهد الله على توبته ، وخلاَّه ، ثم دعا بالأحوص . فقال : «هيه . . !» . .

اللَّهُ بَيْنِى وبَيْنَ قَيِّمِهَا يَفِرُّ مِنِّى بِهَا وَأَتَّبِعُ

بل الله بين قيِّمها وبينك!! . ثم أمر بنفيه ، فكلَّمه فيه رجال من الأنصار ، فأبَى وقال :

«والله لا أردُّه ما كان لى سلطان ؛ فإنه فاسق مجاهر » .

فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه؛ فلا يحل سماعه ولا إنشاده فى مسجد ولا غيره؛ كمنثور الكلام القبيح ونحوه.

وروى إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عوف، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

« **حَسَنُ الشِّعر كَحَسَنِ الكلامِ، وقَبِيحُهُ كَقَبيحِ الكلامِ**»، رواه إسماعيل عن عبد الله الشامى، وحديثه عن أهل الشام صحيح؛ فيما قال « يحيى بن معين » وغيره.

وروى « عبد الله بن عمرو بن العاص » - قال -: قال رسول الله ﷺ:

« **الشِّعْرُ بمنزلةِ الكلام: حَسَنُهُ كَحَسَنِ الكلامِ، وقَبِيحُهُ كَقَبيحِ الكلامِ** ».

وبعد..

فإن الآيات القرآنية الكريمة - من سورة يس، ومن سورة الشعراء - تحدد تحديداً دقيقًا موقف الإسلام من الشعر، وما ذكرناه من حديث شريف، أو قول لبعض أسلافنا، أو موقف للإمام الورع الخليفة عمر بن عبد العزيز، إنما هو إيضاح لما ورد فى القرآن مُوْجَزاً ومُعْجِزاً.

* * *

٢- رأينا موقف الإسلام من الأدب شعراً، فهل يختلف عن ذلك موقفه من الأدب نثراً؟

والواقع أن الإجابة عن هذا السؤال قد تَضمَّنها حديثنا عن الشعر، وتضمنتها كلمات من كلام سيد المرسلين ﷺ، وتضمنتها كلمة الإمام الشافعي رضي الله عنه:

« **حَسَنُهُ حَسَنٌ، وقَبيحُه قبيحٌ** ».

وإذا كان هذا منطقاً بدهياً، فإن رأياً من الآراء نشأ فى عصور اليونان القديمة وأخذ يتخطى القرون قرناً فقرناً.. يخفت أحياناً ويستعلن أخرى، حتى وصل إلى عصرنا الحاضر؛ فأخذ يستعلن كرأى، وأخذ يستعلن كتطبيق، ذلك هو قولهم:

« **الأدب للأدب** »..

ويعنون بذلك: أن الأديب يجب ألاَ تقيِّده حدود من تقاليد أو عُرْف أو دين أو خُلق أو فضيلة أو قومية، وأنه يجب أن يسير فى كتابته حراً طليقاً من كل تحديد.

هذه البدعة نشأت فى الجو اليونانى القديم، وهو جوٌّ تَخلَّى فيه الأدباء عن الدين ونشأت فى بيئة سَادَها جوُّ السوفسطائيين، إنها نشأت فى مجتمع كان فيه أبيقور، وكانت مظاهر الوثنية تحت بصر الإنسان، وأحاديثها تملأ سمعه.

مجتمع آلهته الوثنية : شهوانيون ، مرتشون . . لا يعرفون عدالة، ولا إنصافاً ، وإنما يحابون من يقدم لهم القرابين ، ويخذلون من لم يتخذ عندهم يداً من الهدايا والأضاحى .

وفى هذا المجتمع اليونانى القديم كانت كل بدعة تجد لها أنصاراً، وكل ضلال يجد له من يتبعونه .

وسادت بدعة « **الأدب للأدب**» . .

وكتبَ الأدباء الأدب المكشوف، الأدب الجنسى، أدب الإثارة أدب الشهوة، الأدب الذى يستثير الغرائز، ويحرِّض على الخيانة الزوجية، ويدعو إلى التحلل .

وهذا الأدب يروج عند المراهقين ، وعند الشبان فى بواكير عهدهم بالشباب، وعند الفتيات المراهقات ، ومن هن فى بواكير العهد بالشباب .

ومن وراء رواجِ « هذا النوع المُسفّ من الأدب » ثراء لمن يكتبون؛ فلم يتورَّعوا عن الاندفاع فىَ الكتابة بما يرضى شياطين الإنس والجن؛ من أجل المال .

وفى عصرنا الحاضر، وفى بيئتنا المصرية طائفة مِن الكُتَّاب من هذا النوع، يلعنهم الله ورسوله ويلعنهم كل من يتعشق الفضيلة، وكل مؤمن صادق الإيمان .

والأدب فى أوضاعه المستقيمة إنما هو لإصلاح المجتمع والسير به فى طريق الكمال خطوة فخطوة ، وإن كل من يضع لَبِنَتَهُ فى

صَرْح الفضيلة فإنما يضع لَبِنَةً في صرح الكمال ، وإن كل من يضع لبنةً في صرح الرذيلة فإنما يضع لبنةً في صرح النقص .

وإن الأدباء الذين يجرون وراء الاستثارة الجنسية والأدب المكشوف : خائنون للوطن ، ويعيشون في مَقْت الله ؛ لأنهم مفسدون .

ومع تنبيهنا إلى فساد هذه البدعة فإن ذلك لا يحجب مفاسد أخرى ؛ وذلك أنه أحياناً يتطوع الكاتبون بأقلامهم لتأييد فكرة يجارون فيها صاحب السلطان . وهذا يحدث هنا وهناك ، إنه يحدث في الشرق والغرب كما يجرى الأمر مثلاً في روسيا ، وفي بلاد « الكتلة الشرقية » التي يُضرب على أهلها بستار حديدى ، ويقعون تحت حكم مسيطر لا يستطيعون الانفكاك عنه .

إن أدباء هذا السجن الكبير الذى يضم أقطاراً بأكملها : رجالاً ونساء ، وشُبَّاناً وشابات ، وأطفالاً وشيوخاً . . . إن أدباء هذا السجن يكتبون مؤيِّدين نظام السجن . . مجنَّدين له . . إنهم منافقون .

وفى فترة من الفترات الماضية ظن بعض المنافقين عندنا أنهم يُرضون الحاكم إذا كتبوا مؤيدين للشيوعية ، فأخذوا يطوِّعون الدين لهذه الفكرة بكل وسيلة من الوسائل ، من ذلك مثلاً : تمثيلية عن أبى ذر رضي الله عنه .

لقد كان أبو ذر رضي الله عنه صحابياً جليلاً يتفانى فى حب الله ورسوله ﷺ ، وكان زاهداً فى حطام الدنيا ، ورأى رسول الله ﷺ يقتنى الإبل ويتخذ لها الرعيان ، ورأى أبا بكر يَتَّجِر ويربح ويكون من الأثرياء ، ويرى الكثير من الصحابة يأخذون المال بحلِّه وينفقون فى سبيل الله ، ولكنه رأى بعض الناس - وهذا أمرٌ عاديٌّ فى كل عصر - يتجه إلى الدنيا ويُوليها الكثير من وقته ؛ فأخذ يبشِّر بالزهد : الزهد الدينى ، زهد المتجرِّدين .

وكان فى عهده ذو النورين المبشَّر بالجنة ، الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، من أغنى الأغنياء ، وكان غناه سبباً فى أن جهَّز جيش العُسْرة ، وأن الرسول ﷺ قال - حينما ألقى عثمان فى حجْره مالاً كثيراً من الذهب والفضة - :

« **اللهمَّ ارْضَ عن عثمان، فإنِّى عنه راضٍ** » ، وأخذ يَجُول بيده الشريفة فى الذهب ويقول :

« **ما عَلَى عثمانَ ما فعلَ بعدَ اليوم** » .

وبَشَّر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف بالجنة ، وكانت ملايين عبد الرحمن بن عوف تُنقذ البائس ، وتُشبع الجائع ، ويصل بها رَحِمَهُ ، ويُعين بها على نوائب الحق .

ودعانا القائمون على «التليفزيون» لرؤية «التمثيلية» التى تتعلق بأبى ذر ، وذهبنا لمشاهدتها مع بعض العلماء ، وبعض المؤرِّخين . .

فإذا بنا أمام تزييف للتاريخ، وتَجَنٍّ على الفُضَلاء الشرفاء من الصحابة الأثرياء، ونفاق للحاكم بدون ورع، وبدون صدق، وذلك من أجل النفاق للحاكم، ومن أجل حكام الدنيا.

لقد نزلوا بمكانة كثير من الصحابة، زاعمين - بالإشارة، أو بالتلميح - أنهم من الإقطاعيين، وهكذا زَيَّفوا التاريخ ولم يراعوا الحق، من أجل شهوة غَلاَّبة، هي شهوة المنصب أو المال.

يجب - إذن - أن يتخلَّى الكاتبون عن الجرى وراء الباطل فى سبيل المنفعة الشخصية، ويجب على الحاكمين ألاَّ يشجِّعوا مواكب النفاق التى تتوالى فى كل الأزمنة مُحَسِّنَةً للحاكم هواه، مُؤْثِرةً هواه على رضاء الله تعالى.. حتى ولو خالفَ أمْرَ الله:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[١].

* * *

(١) سورة النساء: ١١٥.

٣ـ ونحب الآن ـ بتوفيق الله تعالى ـ أن نتحدث عن زاوية من زوايا الفن طال فيها النقاش فى العصر الحاضر وطال فيها النقاش فى الماضى، ألا وهى التصوير، سواء أكان رقماً فى ثوب أم نقشاً على الجدار، وسواء أكان رسماً على ورق أم تماثيلَ مُجَسَّدة

إن كل ما يحدث من ذلك ـ مُخلاًّ بالآداب ، مثيراً للشهوة ، منافياً للفضيلة ـ فهو حرام حرمَة لا شك فيها ، وذلك مثل الأجسام العارية ، والصور الخليعة .

وقد ابتُلينا فى هذه الأيام بالكثير من ذلك ، بل أصبحت الإعلانات عن «الكباريهات» عن طريق الصور العارية تنشر فى الصحف اليومية وغيرها ، ولا تتورع صحيفة عن نشر هذه الإعلانات ، ولا تكاد توجد صحيفة إلا وهى تتهالك على نشر ذلك طلباً للمال .

وما من شك فى أن كل مال يُؤدَّى فى ذلك فهو سُحْتٌ تمتنع عنه النفس الأبيَّة والأخلاق الفاضلة ، وأكثر من ذلك . . فإنه توجد مجلات متخصصة فى نشر الصور العارية المثيرة ، وتمر هذه المجلات على الرقابة فلا تعيرها اهتماماً ، وتصرِّح بها ، وتصبح بين أيدى الشبان وطلبة الجامعات ، وطالباتها .

ويكثر الفساد فى المجتمع نتيجة لهذا السوء الذى أصبح مألوفاً، وكأن الله تعالى لم يُحرِّمْهُ، وكأن المجتمع لا دين له.

ونعود فنقول: إن كل ذلك حرام، وفاعلوه ومُبيحو نشره فى المجتمع ملعونون فى عُرْف الفضيلة، ومن قِبَل الله سبحانه وتعالى.

ونوع آخر حرام - لا شك فى حرمته - وهو هذه الأصنام التى أخذت منذ فترة تنتشر شيئاً فشيئاً فى العالم الإسلامى، إنها الأصنام التى يقيمونها هنا وهناك، تخليداً لذكرى شخص، أو رمزاً لفكرة معينة، أو تعبيراً عن القوة أو الجمال.

يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(١).

ويقول تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

---

(١) سورة المائدة: ٩٠ - ٩٢. (٢) سورة الأنعام: ٧٤.

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

ويقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) .

وحينما دخل رسول الله ﷺ مكة أخذ يحطم الأصنام، دون استثناء، وهو يقول :

﴿ .. جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٣) .

والتحريم فيما يتعلق بهذه الأصنام يقين، لا شك فيه .

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء : ٥١ ـ ٥٨ .
(٣) سورة الإسراء : ٨١ .

ومما يذكر في هذا الصدد ما ذكره القرآن الكريم عن بنى إسرائيل مُبيِّناً أن فكرتهم عن الإله سبحانه لم تكن فكرة مستنيرة وإنما كانت فكرة ضالة ، وقد صوَّرها القرآن فى صورتين، أبرع ما يكون التصوير الساخر الموجِّه المرشد المعلِّم .

إحداهما هذه الصورة :

لقد أنعم الله على بنى إسرائيل بنعمة النجاة ، وما إن تمت النجاة حتى رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ، وعن ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] . .

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٨ـ ١٤٠ .

(٢) سورة الشعراء : ٦٩ ـ ٧٧ .

أما الصورة الثانية فهى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (١) .

وقد يقول قائل :

إن علّة تحريم الأصنام فى الإسلام أنها كانت تُعبد من دون الله . . ولكن هذه العلة زالت فى العصر الحاضر ، فلا يتأتى أن يصنع الإنسان صنماً ويعبده فى عهد هذه الحضارة التى عَمَّت الشرق والغرب ؟

ونحب ـ إجابة عن ذلك ـ أن نقول :

(١) سورة الأعراف : ١٤٨ـ ١٥٢ .

إن الإسلام حَرَّم ذلك تحريماً مطلقاً لا يقيده زمن ولا مكان ، وإن حكمة الله فوق كل حكمة ، والمبادئ التى أوحاها سبحانه لا تنقضها أهواء البشر ، ثم إنه فى هذه الحضارة التى عمَّت الشرق والغرب ما زالت البقر تُعبَد أو تُقدَّس ، وما زالت تُثير المعارك وتُسيل دماء بنى البشر ، دماء أهل وطن واحد .

وفى هذه الحضارة الحديثة ما زالت الأصنام تُعبَد أو تقدَّس ، فى معابد لا تُحصَى ، من معابد الشرق الأقصى .

وفى هذه الحضارة الحديثة ما زالت بعض الأديان فى أكبر الدول تحتفظ بطابع اللامعقول ، طابع يتميز بأنه ضد العقل والمنطق والتفكير السليم ، ويتغلغل هذا الطابع فى كثير من زواياها ، ولكن الإلف ، والزمن ، والتكرار ، والتعوُّد . . كل ذلك جعل منها أدياناً تستمر فى الماضى ، وما زالت مستمرة فى الحاضر ، مع أنها خرافات وأساطير .

وقد أعلن كبار مؤرخى الأديان عن الأساطير فيها والخرافة ، ومع ذلك ما زالت مستمرة .

وأمْرُ الإنسان ـ فى الحاضر أو فى الماضى ـ غريب :

إن الإلف يغرس فى شعوره أن المألوف صحيح ، وأن ما عليه الآباء والأجداد ـ من عقائدَ ـ حقٌّ . إنه يفعل ذلك دون تأمُّل أو فحص ، بل إنه يفر ويهرب من التأمل والفحص إذا أدَّاه ذلك إلى

إنكار المألوف من العقائد، ويُسْكِتُ في نفسه - بالقهر - صوتَ الإنكار أو النقد.

وبقيت أساطير، واستمرت خرافات، ودام ضلالٌ دهوراً:

إنَّا وجدنا آباءنا . . .

ونخلص - من كل ذلك - إلى القول بأمرين، هما من البداهة بمكان:

١- إن كل ما يتنافى مع الدين في التصوير مُحَرَّمٌ.

٢- إن الأصنام - على أيٍّ وضعٍ كانت: تمثيلاً لشخص، أو تمثيلاً لفكرة - محرَّمة.

بقي بعد ذلك أهم جانب - من الوجهة العلمية البحتة - نحب أن نتحدث عنه، وذلك هو موضوع التصوير العادى الذى يُستعمل الآن فى شمول عام، هذه الصور التى تُستخدم فى البطاقات الشخصية، وفى جوازات السفر، والصور الخاصة بالذكريات، وصور الأبناء للآباء، أو صور الآباء للأبناء . .

* * *

٤ـ موضوع التصوير العادى الذى يستعمل الآن فى شمول عام، هذه الصور التى تستخدم فى البطاقات الشخصية، وفى جوازات السفر، والصور الخاصة بالذكريات

انتهينا فيما كتبناه سابقاً عن «موقف الإسلام من الفن» من الحديث عن الأدب شعراً ونثراً.

وانتهينا من تحديد موقف الإسلام من الأصنام التى تُقام، ومن التماثيل التى تُنصب فى الميادين العامة أو فى غيرها.

بقى بعد ذلك أهم جانب ـ من الوجهة العلمية البحتة ـ نحب أن نتحدث عنه، وذلك هو موضوع التصوير العادى الذى يستعمل الآن فى شمول عام، هذه الصور التى تستخدم فى البطاقات الشخصية، وفى جوازات السفر، والصور الخاصة بالذكريات وصور الأبناء للآباء، أو صور الآباء للأبناء.

وإنى أتحدث الآن عن هذا الموضوع وأنا أعلم أنه مثار نزاع حاد، يبدأ شيئاً فشيئاً على توالى الأيام، ولكن هدفه لا يرجع إلى اقتناع المانعين، بل إلى طغيان الموجة، وقصورهم عن مقاومتها.

ونحن لا ننظر ـ فى إعلان رأينا ـ إلى وضع قائم أو إلى طغيان الموج أو العوج، أو إلى حاجات فى المجتمع تقتضى التحليل، وإنما نرجع ـ فى رأينا ـ إلى الوثائق، وإلى آراء أسلافنا، وقد

اختلفوا هم الآخرون اختلافاً كثيراً محلِّلين أو محرِّمين، ونحن نبدأ بحديث صحيح رواه الإمام البخارى فى صحيحه ، قال :

حدثنا قتيبة : حدثنا الليث عن بُكير عن بُسْر بن سعيد عن زيد ابن خالد عن أبى طلحة صاحب رسول الله ﷺ ، قال :

إن رسول الله ﷺ قال : إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة. قال بُسْر: ثم اشتكى زيد فعُدْناه ، فإذا على بابه سِتْرٌ فيه صورة ، فقلت لعبيد الله الخولانى ـ ربيب ميمونة زوج النبى ﷺ ـ:

ألم يخبرنا زيدٌ عن الصور يومَ الأوَّل ؟. فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال: إلا رَقْماً فى ثوب ؟ .

وقال ابن وهب : أخبرنا عمرو ـ وهو ابن الحارث ـ حدثه بكير، حدثه بُسر، حدثه زيد، حدثه أبو طلحة عن النبى ﷺ .

هذا الحديث الشريف هو الأساس الذى يقوم عليه رأينا .

ويقول الإمام النووى :

« **وذهب بعض السلف إلى أن الممنوع ما كان له ظل ، وأما ما لا ظل له فلا بأس باتخاذه مطلقاً** ».

ثم يعقِّب الإمام النووى على ذلك بقوله :

« **وهو مذهب باطل** » .

ولكن الإمام ابن حجر ـ صاحب فتح البارى ـ يعقِّب على ذلك قائلاً عن مذهب « بعض السلف » هذا :

المذهب المذكور نقله ابن أبى شيبة عن القاسم بن محمد بسند صحيح ولفظه:

« عن ابن عون قال: دخلت على القاسم وهو بأعلى مكة فى بيته، فرأيت فى بيته حَجَلة فيها تصاوير القُنْدُس والعَنْقَاء ».

ففى إطلاق كونه مذهباً باطلاً نظر، إذ يحتمل أنه تمسَّك فى ذلك بعموم قوله: « **إلا رقماً فى ثوب** ». فإنه أعمُّ من أن يكون معلَّقاً أو مفروشاً، وكأنه جعل إنكار النبى ﷺ على عائشة تعليق السِّتر المذكور مركَّباً من كونه مصوَّراً، ومن كونه ساتراً للجدار، ويؤيده ما ورد فى بعض طرقه عند مسلم، فأخرج من طريق سعيد بن يسار عن زيد بن خالد الجهنى قال: « دخلت على عائشة... »، فذكر نحو حديث الباب، لكن قال: فجذبه حتى هتكه، وقال:

« إنَّ الله لم يأمرنا أن نكسوَ الحجارةَ والطينَ. قال: فقطعنا منه وسادتين ».. الحديث.

فهذا يدل على أنه ﷺ كره سَتْرَ الجدار بالثوب المصوَّر، فلا يساويه الثوب الممتهن ولو كانت فيه صورة، وكذلك الثوب الذى لا يُستر به الجدار.

والقاسم بن محمد أحد فقهاء المدينة، وكان من أفضل أهل زمانه، وهو الذى روى حديث النمرقة، فلولا أنه فهم الرخصة فى مثل الحجلة ما استجاز استعمالها.

ويقول الإمام ابن حجر:

وقد أخرج ابن أبى شيبة من طريق أيوب عن عكرمة، قال: كانوا يقولون فى التصاوير فى البسط والوسائد التى توطأ ذُلٌّ لها.

ومن طريق عاصم عن عكرمة قال: كانوا يكرهون ما نُصب من التماثيل نصباً، ولا يرون بأساً بما وطئته الأقدام.

ومن طريق ابن سيرين، وسالم بن عبد الله، وعكرمة بن خالد، وسعيد بن جبير قولهم أنهم قالوا: لا بأس بالصورة إذا كانت تُوطأ.

ومن طريق عروة أنه كان يتّكئ على المرافق فيها تماثيل الطير والرجال.

ويلخص الإمام أبو بكر بن العربى المذاهب فى « التصوير ».. فيقول:

حاصل ما فى اتخاذ الصور أنها إن كانت ذات أجسام حَرُمَ بالإجماع، وإن كانت رَقْماً فأربعة أقوال:

الأول: يجوز مطلقاً، على ظاهر قوله فى حديث الباب « إلا رقماً فى ثوب ».

الثانى: المنع مطلقاً حتى الرقم.

الثالث: إن كانت الصورة باقية الهيئة قائمة الشكل حَرُمَ، وإن قُطعت الرأس أو تفرّقت الأجزاء جاز.

قال: وهذا هو الأصح.

الرابع: إن كان مما يُمتهن جاز، وإن كان معلّقاً لم يَجُزْ.

ولقد حمل أبو على الفارسى لفظ «المصوِّرين» فى الأحاديث التى تتحدث عن عذابهم على « المُشَبِّهة » .

وقال : إنهم المراد بقوله : « المصوِّرون » أى : الذين يعتقدون أن لله صورة - كما يقول .

ويقول أبو محمد الجوينى : « إن نسج الصورة فى الثوب لا يمتنع ، لأنه قد يُلبس » .

وقال البعض : إن التصوير على الأرض - ونحوها - جائز .

وبعد..

فإن الآراء فى هذا النوع من الفن لم تُجْمِعْ على الحِلِّ ولا على التحريم .

ونحن نميل إلى الحِلِّ مستندين إلى الحديث الشريف ومتناسقين مع كل الآراء التى ذهبَت إلى الحِلِّ ، وإننا مطمئنون كل الاطمئنان إلى ما ذهبنا إليه ، على الرغم من أن كثيرين يخالفوننا فى الرأى ، وكل مجتهد مخلص مأجور .

ولقد كتبت « مجلة المسلم » - نقلاً عن كتاب« الإسلام والحضارة العربية » للأستاذ محمد كرد على - ما يلى :

أقرَّ الرسول الكريم - سيدنا محمد ﷺ - النقود التى كان يستخدمها العرب فى الجاهلية ، وكانت تَرِدُ من الممالك المجاورة ، وهى مصوَّرة .

وضربَ عمر الدراهم نقش الكسروية وشكلها .
وضربَ معاوية دنانير عليها تمثالٌ متقلِّدٌ سيفاً .
واستعمل زيد بن خالد سِتْراً فيه صُوَر .
وكانت المنسوجات اليمنيَة فيها تصاوير .
وصُنعت الصُّوَر فى دارى مروان بن الحكم وسعيد بن العاص.
ـ وهكذا لم يُحَرِّم الإسلام صناعة مفيدة فى كثير من العلوم والفنون.

* * *

٥ ـ رأى أفلاطون . وهو رأى يشبه فى كثير من جوانبه الرأى الإسلامى

لعلَّه أصبح واضحاً الآن موقف الإسلام من :

١ـ الفن من زاوية الشعر .

٢ـ الفن من زاوية النثر .

٣ـ الفن من زاوية التصوير الفوتوغرافى ، والتصوير بالرسم .

٤ـ الفن من زاوية الأصنام والتماثيل .

ولعلَّه من المستحسن أن نذكر رأى أفلاطون فى موضوع الفن ، ونذكر رأى «أفلاطون» بالذات لأنه كان فناناً . وأقصد بذلك أنه كان أديباً ممتازاً فى أسلوبه الرائع الجميل .

وكان أديباً ممتازاً فى هذه القصص التى كان ينشرها هنا وهناك ويعبِّر بها عن أدق مسائل الفلسفة فى صورة سردية .

لقد كان «أفلاطون» ـ فى عُرْف جميع الذين أرَّخوا له ـ أديباً من الطراز الأول .

وكان فيلسوفاً ، وكثير من مؤرِّخيه وضعوه على رأس الفلسفة ، ويسمُّونه «أفلاطون الخالد» ، ويسمُّونه «أفلاطون الإلهى» ، ويُفَضِّله كثيرون على أرسطو . .

إنه فنان يُبدِى رأيه فى الفن .

وهو فيلسوف يزن رأيه فى الفن بميزان دقيق . .

ولكنه حين يبدى رأيه فى الفن لا يبديه كأديب فقط ، ولا كفيلسوف فحسب ، وإنما يبديه كأديب وفيلسوف ، ويبديه أيضاً كمُصلح اجتماعى له رأيه فى المجتمع المثالى وكيف يتحقق .

ومن أجل كل ذلك كان رأى «أفلاطون» له وزنه ، وخصوصًا لأنه لا يتحدث باعتباره ممثلاً للدين أو عالماً من علمائه . يتحدث «أفلاطون» عن الجمهورية المثالية ، ويتحدث عن الطبقات التى تتكون منها الجمهورية ، وعما ينبغى أن تكون عليه كل طبقة .

وعند حديثه عن الطبقة الفضية ، وهى طبقة الجند ، تعرَّض - بصورة خاصة ، وبصورة عامة - إلى الواجب فيما يتعلق بموضوع الفن ، وبدأ بالشعر ، وبدأ فى الحديث عن الشعر بما يجب أن يُسمح به من الشعر .

ومما نحب أن يتنبه إليه القارئ فى تأمل رأيه فى الشاعر اليونانى «هوميروس» وفى الشاعر اليونانى «هزيور» وفى قصة «الإلياذة» وفى قصة «الأوديسَّا» .

وذلك أن منْ أدبائنا مَنْ رفع شأن هؤلاء رفعة لا تكاد تضارعها رفعة أديب آخَر ، وأشاد بالشاعرين وبالقصتين إشادة بالغة ، فى مقابلة ذلك نذكر رأى مواطنهما «أفلاطون» ، إذ يتحدث عن ثقافة الجُندى .

وكان مما قال فى ذلك :

يجب على الذين يتولَّون بناء المجتمع المنشود أن يميِّزوا من بين الأحداث أصحاب الاستعداد الحربى فيفصلوهم طائفة مستقلة، ويتعهدوهم بالتربية، وعليهم أن يرتِّبوا لهم رياضة بدنية تنشِّئهم أصحَّاء أقوياء، وعليهم أن يغذُّوا نفوسهم بالآداب والفنون، فتكون التربية واحدة للجميع إلى حوالى الثامنة عشرة، وتكون سهلة لذيذة؛ لأن الإكراه لا يكون للرجال الأحرار.

وتكون فاضلة: تبدأ بالقصص الجديَّة البريئة الحاثَّة على الخير، وتُستبعد منها قصص (هوميروس، وهزيور) ومَنْ نَحَا نحوهم من الشعراء؛ فإنها مرذولة من حيث المادة، ومن حيث الصورة.

أما من حيث المادة فقد سَمَّجَتْ عقولَ اليونان، وأفسدتْ ضمائرهم بما تروى عن الآلهة والأبطال من أخبار الخصومات وقبيح الأفعال، وبما لا تفتأ أن ترددِّه من أن الرجل العادل يعمل لخير غيره وشقاء نفسه، وبما تصف من هول الموت وتفاهة الحياة الأخرى، مما يُوهن العزيمة ويُقْعد عن الجهاد فى سبيل الوطن.

وأما من حيث الصورة؛ فإن الفن يقوم بالمحاكاة، ويخلق المحاكاة، والشعر - بألفاظه وأوزانه - يحاكى كل شيء.. القوى الطبيعية، والحيوانات، والبشر، والنزعات الرفيعة، والشهوات الدنيئة، فيبعث فى النفس مثل ما يصف من العواطف والأفعال، والمحاكاة المتصلة تصير عادة، فتلقين الحواس القصص القديمة

يُفسد طبيعتها، فنحن مع إعجابنا بمحاسن هذا الشعر ننعته بأنه مُعلِّمُ وَهْمٍ، ونعمد إلى صاحبه فنضع إكليلاً على رأسه ونشيِّعه إلى حدود المدينة فننفيه نفياً ونحن نترنَّم بمديحه، ولا نستبقى غير الشاعر عفِّ اللسان، سديد الرأى، هادئ النسق، الذى يحاكى الخير ليس إلا.

وينتقل «أفلاطون» من الفن الهوميرى إلى الفن بالإجمال، ويتحامل عليه ويتعسَّف فى نقده، فهو لا يرى الفن شيئاً أوَّل له قيمة فى ذاته، ولكنه يضعه فى المرتبة الثالثة بعد المثال أو الوجود الحق، وبعد صورته المحسوسة المتحققة فى الطبيعة، فإن الفن يحاكى الوجود الطبيعى، وهذا الوجود يحاكى الكمال، فالفن صورة الصورة وشبح الشبح: يصنع النجار السرير محاكياً مثال السرير، ويصوِّر المصوِّر سرير النجار؛ فهو ليس حاصلاً على العلم الحق الذى موضوعه المثال أو الشىء بالذات، ولا على الظن الصادق، وإنما هو جاهل مخادع يأخذ على نفسه محاكاة الأشياء الطبيعية، فيبرزها مشوَّهة فى غير نسبها الحقيقى، من حيث المقدار والشكل.

ولكنه لا يخدع إلا عن بعد، ولا يخدع إلا الجهلاء، وكذلك الشاعر، فإنه لو كان يعلم حقاً ما يتظاهر بعلمه، لكان يعمل بدل أن يقول، ولكان يقود الجيوش أو يشرِّع القوانين، و«هوميروس» لم يفعل شيئاً من ذلك، ولكان يُؤْثِرُ أن يحيا حياة مجيدة،

و«هوميروس» ارتضى لنفسه أن يكون قَصَّاصاً للحياة المجيدة وراويةً.

فالفن - بالإجمال - أداة إيهام وتخييل، والشعر دجل؛ كالتصوير؛ إذا نُزع عنه سحر اللفظ والتوقيع بدا شاحباً فقيراً، يستطيب وصف العواطف، وهى متقلِّبة متنوِّعة، ولا يجد له موضوعاً فى العقل الثابت الهادئ، فيُهيج العواطف، ويشلُّ العقل، مثله مثل طاغية يقلِّد السلطة للأشرار ويضطهد الأخيار، فإنه يُوحى بالعطف على أفعال وانفعالات رديئة، ويُضعف إشرافنا على الجزء الشهوى من النفس. فيحرك فينا البكاء تارة، والضحك طوراً، ويدفعنا - ونحن نشهد التمثيل - إلى استحسان ما ننكره فى الحياة الحقيقية، وإلى التصفيق لما نغضب له فى الواقع.

و«التراجيديون» لا يرمون لغير إحراز إعجاب الجمهور، والجمهور لا يميل إلى الأشخاص الحكماء الرزينين، بل يطلب أشخاصاً شهويين متقلبين تملأ تقلباتهم وشهواتهم القصة. فيلهو بها ويميل معها إلى كل جانب.

وأما «الكوميديا» فهى رديئة بالذات، تَضْحَكُ من إخواننا فى الإنسانية، وتُنمِّى حاجة المزاح والسخرية.

إذن: فعلى الشارع أن يراقب جميع مظاهر الفن، وجميع الفنانين من شعراء، ومغنِّين، وممثِّلين، ومصوِّرين، وغيرهم،

فيخلق بيئة كلهـا جمال سليم رزين ، ويُنشئ مواطنين كاملين يتوجهون إلى الفضائل عفواً، ويصون نفوسهم من كل خدش ، إذ ليست الغاية من الفن توفير اللذة ، بل التهذيب والتطهير.

هذا هو رأى أفلاطون..وهو رأى يشبه في كثير من جوانبه الرأى الإسلامى ، بيد أن الرأى الإسلامى يمتاز بالدقة والاتزان، والبعد عن جو الأساطير.

* * *

٦ـ إيضاح حول « الفن للفن »
والفن للحق والفضيلة

السيد الأستاذ الفاضل / رئيس التحرير

. . مجلة آخر ساعة[١]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد . . فقد نشرت مجلتكم فى عددها الماضى مقالاً عن المسرح نسبت فيه إلىَّ القول بتحريمه .

وأرجو من سيادتكم ـ حرصاً على توضيح الأمر ، وحتى لا يُسىء قراؤكم الظن ـ نشر الكلمة التالية . . ولكم جزيل الشكر .

والواقع أن الموضوع ـ كما ظهر فى مجلة «آخر ساعة» ـ يثير أسئلة كثيرة فى نفس القارئ ، تحتاج إلى توضيح وبيان .

والأمور حينما تؤخذ هكذا : مُجْمَلَة ، مُوجَزة ، مبتورة ، وحينما تؤخذ نتائج ، هى عبارة عن كلمات ، فإنها تؤدى إلى سوء الفهم أكثر مما تبعث على حسن التفاهم .

ونحن إذا نظرنا إلى نشأة المسرح فى الأمة اليونانية ، وأذكر الأمة اليونانية بالذات ؛ لأن المسرح الحديث ليس إلا امتداداً لمسرح اليونان ؛ فإننا نجد أنه نشأ منفصلاً عن الدين .

---

(١) رد إلى المجلة حول كلمات نسبت إلى الإمام عبد الحليم محمود ﷺ عن المسرح بين الحل والتحريم.

وقد لا يكون فى ذلك ضرر فى نظر كثير من الناس ، ولكن المسرح حينما ينشأ بعيداً عن الدين ، فإن معنى ذلك أنه ينشأ نشأة فنية بحتة ، أى : أنه ينشأ معتمداً على المبدأ السائد الآن ، وهو «الفن للفن »، هذا المبدأ هو الذى نحاربه باعتبارنا دعاة أخلاق ، وباعتبارنا دعاة مُثل أخلاقية ثابتة .

نحن - إذن - نحارب مبدأ سائداً فى المسرح ، ولا نحارب المسرح ، والمبدأ الذى ندعو إليه ويدعو إليه علماء الدين فى كل مكان ، ويدعو إليه فريق كبير من المفكرين والمصلحين ، على اختلاف فى طبقاتهم ومهنهم ، وهو المبدأ الذى كان سائداً فى الحضارة الصينية القديمة مثلاً ، والحضارة الهندية القديمة ، والحضارة المصرية القديمة ، إنما هو « الفن للفضيلة » أو « الفن للأخلاق » أو « الفن الموجَّه » .

إننا نحارب الفن المنطلق ، الفن المتحرِّر ، الفن المكشوف ، الفن الإباحى ، الفن اللا دينى .

وأظن أن السيد الفاضل « رئيس التحرير » يوافقنى على أن فننا المسرحى الحالى لا يتَّسم - فى قليل ولا فى كثير - بأن الأساس الذى يقوم عليه إنما هو : الفضيلة ، والدين ، والخير ، والحق .

ومن هنا تتبين وجهة نظرنا فى الموضوع : إنه محل اختلاف فى الرأى بين فئتين كبيرتين من المفكرين - أوربيين ، وشرقيين - وبين روحين مختلفين لنوعين من الحضارات الكبرى ، وبين نزعتين مختلفتين فى تصوُّر الحياة : وسائل وغايات .

وموضوع الاختلاف هو السؤال القديم الحديث: « هل الفن للفن، أم أن الفن للفضيلة ؟» . . ولسنا بصدد شيء أكثر من هذا .

ولست أنا الذى أشرِّع للحلال والحرام: فالحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ، وكلٌّ منَّا يعرف ـ فى قرارة نفسه ـ حَدَّ الحِلِّ، وحَدَّ الحُرمة . وبعضنا يحاول أن يغش نفسه ، وأن يزيِّف ضميره، وبعضنا يعلن رأيه واضحاً سافراً مهما وجد من السخط أو من السخرية عند من يكذبون على أنفسهم ويخدعون ضميرهم ، بل إن السخط نفسه والسخرية إنما يبعثان الداعية على مضاعفة جهده لأنهما المقياس الذى يدل على مدى الفساد: قوةً وضعفاً .

ومما لا شك فيه: أن فكرة « الفن الموجَّه » لها ـ الآن ـ فى «الجمهورية العربية المتحدة » أنصار كثيرون: فإذا دعا داعٍ إلى أن الفن يجب أن يعبِّر عن الاشتراكية ، أو أن الفن يجب أن يبتَّعد عن التخنُّث ، أو أن الفن يجب ألاَّ يتعرض للدين؛ فإن ذلك معناه أن الفن ليس للفن، وكل ذلك ـ إذن ـ إنما هو تأييد جزئى لما ندعو إليه .

بقى أن نتساءل: لماذا يتجه الفن إلى التحرُّر وتسود فيه ـ رغم نداء المصلحين ـ فكرة التحرُّر . . إنه كذلك لأن هذا إنما يتماشى مع الشهوات والغرائز والرغبات الجنسية . . وتنتهى المشكلة ؛ مشكلة الفن ـ لا محالة ـ إلى السؤال التالى :

هل من الواجب أن يخضع الفن للغرائز ، أم من الواجب أن نوجِّهه إلى الفضيلة ؟

لقد ذهبت مرة إلى تسجيل فى الإذاعة، وكان ذلك فى شهر رمضان، ولظرف طارئ غيَّرت الإذاعة مكان تسجيل الحديث . .

وذهبت إلى مكان التسجيل الجديد ؛ فإذا به مكان تسجيل التمثيليات وإذا بالممثلات كثيرات . . بعضهن ينتظرن التمثيل، وبعضهن يسترحن خارجات من التمثيل . . فكان (فى شهر رمضان) العرى الفاضح، والجلسات التى لا تتسم بالأدب، والتدخين، والشراب، والكلمات التى لا تتسم بالتهذيب، والضحكات الخارجة، وغير ذلك من نواحٍ لا أخلاقية .

إن هذا اللون من السلوك وهذا التصوُّر للحياة وهذا الطابع للأخلاق : هو الذى نحاربه فى الفن، وفى الأدب، وفى السينما، وفى المسرح، وفى التصوير، وفى النحت، وفى كل وضع يظهر فيه . . وهو الذى نريد أن نبعد طالب الأزهر عنه .

فإذا ما وجد من يُبيحه فإنه لا يكذب على الله ـ وحَسْب ـ وإنما يكذب على نفسه . .

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1] . .

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] .

وبالله التوفيق .

عميد كلية أصول الدين

عبد الحليم محمود

---

(١) سورة الرعد : ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠١ .

٧ـ سؤال وجواب:
حول الخلط بين المذاهب الفنية والأدبية وبين المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الوثيقة الصلة بتصوُّر العقيدة

سؤال : عـمـدَ بعض اللا دينيين إلى الخلط بين المذاهب الفنيـة والأدبية ، وبين المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الوثيقة الصلة بتصور العقيدة . . ما تعليق فضيلتكم على ذلك ؟

الجواب:

« المذاهب الفنية والأدبية » التي تتعلق بوسيلة التعبير ، وكيفية توصيل المعانى إلى الناس : لا يقيِّدها الدين إلا من ناحية ما تعبِّر عنه ، أى أن الدين يهتم بالمعنى المعبَّـر عنه ، وبأن تكون وسيلة التعبير غير مفيدة معنًى آخر . . وبأن يكون هذا المعنى فى إطار الخير . .

ومن المفيد أن نشير إلى قوله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1] .

أى أن الرسالة لا يمكن أن تصل إلى المُرْسَل إليهم ؛ إلا إذا كانت بلغة يعرفونها ، وبلسان يفهمونه .

وقد أوجب الإسلام تعلُّم لغات الناس لتوصيل الدعوة إلى غير العرب انطلاقاً من قاعدة «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» .

---

(١) سورة إبراهيم: ٤ .

وانطلاقاً من هذه القاعدة ؛ تنوَّعت أساليب القرآن من محاورات عقلية إلى أمثال حسية ، إلى قصص أدبية ، ليتسع مجال فهمه لكل العقول، ولشتَّى البيئات، وهو سر من أسرار الإعجاز فيه . إن كل إنسان ـ مهما كانت درجة ثقافته ـ يفيد منه ، ولا يمكن أن يرتفع إنسان ـ مهما عَلَتْ ثقافته ـ عن مستوى التعبير القرآنى الكريم .

وفى السُّنَّة الشريفة : تنوَّعت أساليب الرسول ﷺ ما بين استفهام لتنبيه الأذهان إلى ما يُلقَى من علوم، وتوجيه مباشر ، وسؤال لاستخراج المعلومات من الناس ، ثم تصحيح هذه المعلومات، إلى غير ذلك مما يجده الباحثون .

مذاهب التعبير ـ إذن ـ مذاهب إنسانية تختلف باختلاف أحوال الناس ونُظمهم ودرجة ثقافتهم، والإسلام لا يقيِّدها ـ كما قلنا ـ إلا من ناحية ما تعبِّر عنه ، ومن ناحية الألفاظ المستخدمة فى التعبير .

أى أن الإسلام لا يبيح الخروج على آدابه ـ ولو فى اللفظة المستعملة فى التعبير ـ ويترك للمسلم بعد ذلك أن يعبِّر عن فكرته بالأسلوب الذى يريد، دون أن يقيِّده بمذهب ما . . فلم يأت الإسلام بمذهب للتعبير لا يَرضى غيره . . وهكذا .

هذا عن « المذاهب الفنية والأدبية » . .

أما « المذاهب الاقتصادية والاجتماعية » فقد رسم الإسلام إطار التحرك فى مجالها بما سَنَّهُ من تكاليف ، وقرَّره من قواعد .

فأسلوب التصرف فى المال مقيَّد فى الإسلام بمراعاة أن يكون مصدره من حلال، وبأن يُدفع حق الله منه وهو الزكاة، وبأن لا يُفَرِّط الإنسان فى حق لازم عليه كالنفقة على أهل بيته، وصلة رحمه، وهكذا..

أما كيفية العمل فقد تركَ الإسلام للناس طريق التطور فى استخراج خيرات الأرض عن طريق الصناعة بطرقها المختلفة أو الزراعة أو التخصص فى مجال من المجالات.

و « المذاهب الاجتماعية » رسم الإسلام لها طرقاً لا ينبغى الخروج عليها، كنظام النكاح والطلاق وسائر ما يتعلق بتكوين الأسرة، وتركيب المجتمع، ومسئولية المسلم عن غيره من المسلمين.

وفيما عدا ذلك: تركَ الإسلام للمسلم أن ينظر فى «نُظُم» المجتمعات المختلفة، ويؤسس النظريات على أساس من هذا النظر، ليُظهر روعة الإسلام فيما قرَّره من أحوال المجتمعات، وليتكون له من البصر بشئون الدنيا ما يمكِّنه من نشر تعاليم الإسلام أو تطبيقها إن كان ممن يملك وسائل التطبيق.

« المذاهب الفكرية والفنية » إذن: وسائل للتعبير لا يقيِّدها الإسلام إلا من حيث ما تعبِّر عنه.

و « المذاهب الاقتصادية والاجتماعية» - إن وافقت الإسلام - أخذنا بها على أنها إسلام أو وَضْعٌ إلهى، لا على أنها أفكار بشرية، وإن خالفت الإسلام ضربنا بها عرض الحائط، إذ المسلم

لا يرى خيراً فيما لا يوافق دينه ، وإلا كان متناقضاً مع نفسه .

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[1].

تحريرًا فى ٢٠ / ٨ / ١٩٧٥م .

عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر

* * *

(١) سورة آل عمران : ٨٣ .

الإسلام والعلم

* دائرة العلم فى الإسلام.
* العلم الذى يدعو إليه الإسلام.
* أهداف الرسالة الإسلامية .
* منزلة العلم فى الإسلام.
* مكانة العلم فى الإسلام.
* فضل العلم الدينى .
* ثمرة الحث على العلم.
* أسطورة التعارض بين الإسلام والعلم.
* المناهج العلمية بين الإسلام والحضارة الحديثة.

١ـ دائرة العلم فى الإسلام

ونقول ابتداءً :

إننا لا نأخذ كلمة « العلم » بالمفهوم الحديث فحسب . والمفهوم الحديث هو الذى تأخذ به أوربا ، وتأخذ به جامعاتنا المصرية وغيرها من الجامعات حينما تستعمل الكلمة .

وهذا المفهوم هو :

« العلم هو القواعد التى بُنيت على الملاحظة ، والتجربة ، والاستقراء » .

وهو بهذا المفهوم يختص بالجانب المادى . . إن دائرته الكون : السماء والأرض ، وما بين السماء والأرض .

أما ما وراء هذا الكون ، وأما ما قبل هذا الكون ، وأما ما بعد هذا الكون ، فإن العلم ـ بالمفهوم الحديث ـ لا يتعرض له ، وذلك لأنه لا يدخل تحت دائرة الملاحظة والتجربة والاستقراء .

ولعل القارئ يدرك من هذه الكلمات السابقة أن العلم بهذا المفهوم الأوربى لا يتأتى له أن يحكم على ما ليس فى دائرته . . ومن أجل ذلك : فإن العَالِم ـ أىَّ عَالِم ـ لا يستطيع إنكار الألوهية ولا البعث ولا الغيبيات على وجه العموم .

والعَالِمُ الذى ينكر ـ بصفته كعَالِم ـ وجودَ الله ، أو ينكر البعث ، فإنه يكون قد خرج عن صفته كعَالِم . . ولا يوصف فى

أجواء العلماء إلا بأنه مهرِّج ، وإنه ليكفى أن ينكر ـ بصفته كعالم ـ شيئاً من الغيبيات ليسحب العلماء ثقتهم فيه ، وينبذوه من محيطهم .

وذلك لأنه ما دامت قد حُدِّدت دائرة العلم بأنه ما بُنى على الملاحظة والتجربة ـ أى : ما كان مجاله المادة ـ فإنه إذا تعرَّض عالم لما ليس من اختصاصه على أنه علم فإنه يكون بذلك قد خرج على أوضاع العلماء فى مفهوم العلم ، وخرج على مبادئهم المقررة فى دائرة العلم : وهى المادة .

قلنا إننا لا نأخذ مفهوم العلم بالمعنى الأوربى ، بل سنأخذ مفهوم العلم بالمعنى الإسلامى . ومفهوم العلم بالمعنى الإسلامى أوسع دائرة ؛ إنه المعرفة بكل نافع من الأمور . . إنه المعرفة بالكون وبما وراء الكون ، بالوجود المادى وبالوجود الروحى ؛ إنه المعرفة بالآفاق وبالأنفس وفى نطاق ذلك يدخل العلم بالمادة أو العلم بالمفهوم الحديث .

وهذا المفهوم الحديث للعلم هو اصطلاح حديث ؛ فما كانت كلمة العلم فيما مضى ـ فى أوربا ، وغيرها ـ تعنى القوانين التى تسير عليها المادة فحسب ، وإنما كانت الكلمة مطلقة ، فلمَّا كانت النهضة الأوربية الحديثة قُسِّمت أنواع المعرفة ، بحسب مَلَكَات الإنسان وشعوره ، وذلك لتسهل التفرقة بين مجالات المعرفة ، وليسهل الحكم فى كل مجال .

هناك المجال الذى يسرح فيه « الحسُّ »، ويجتلى معالمه، وهو المادة، وسمَّى العلماء المُحْدَثُونَ مجال الحس «علماً». وهناك مجال يلعب فيه « الوجدان والذوق » الدور الأول. وسمَّى العلماء المحدثون هذا المجال « فَنّاً ».

وهناك مجال هو من شأن « العقل البحت » وهذا المجال ينقسم إلى قسمين :

(أ) قسم الرياضة ، وهو يقين كله.

(ب) قسم الإلهيات ، حينما تقوم على العقل وحده .. وقسم الأخلاقيات بمعناها الواسع حينما تنبع عن العقل وحده، وهذا القسم هو « الفلسفة ».

أما ما كان مردُّه إلى البصيرة والوحى وصلة الإنسان ـ النبى أو الرسول ـ بالله تعالى فإنه « الدين »، وليس الدين قواعد خاصة بالمادة، وإن كان يتحدث عنها ـ عَرَضاً ـ أحياناً .

وليس الدين من أجل أذواق تتصل بالفن ، وإن كان له فى ذلك توجيهات أحياناً .

وليس مصدر الدين (كمنبع ومرجع) العقل ، وإن كان ما أتى به يقرِّه العقل كله، ومبادئه لا تتناقض مع العقل .

وإذا كنا فى مقالنا هذا، نأخذ العلم بالمفهوم العام ـ كل نافع من المعرفة ـ فإننا ننبه إلى أن كل ما أُسِّسَ على القرآن والسُّنَّة فهو فى نطاق المجال الدينى، وأن بحثنا هذا إنما كان لبيان موقف الإسلام

من العلم بالمفهوم العام، ولا يمنع ذلك من أن التفرقة ما زالت قائمة بين مختلف مفاهيم المعرفة.

ونعود من جديد ونتساءل:

ـ ما موقف الإسلام من العلم؟

إن الله سبحانه قد رسم مهمة الرسول ﷺ فى قوله تعالى:

﴿ **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾[1].

إنها العِلْم والخُلُق: العلم إلى غاية هى « الحكمة ». والخُلُق إلى غاية هى « التزكية ».

وهذه المهمة الكريمة تبدو ـ فى وضوح ـ فى الكلمات الأولى للوحى الإلهى. . إن الوحى بدأ بقوله تعالى:

﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[2].

وأول كلمة فى الوحى هى « **اقْرَأْ** » وتتكرر كلمة « **اقْرَأْ** » فى هذه الآيات الأولى من الوحى . . وتتكرر مادة «العلم» ، ويذكر فيها القلم ، أداة من أدوات التعليم.

ثم كان أول «قَسَم» أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ به فى القرآن الكريم ، إنما هو القَسَم بالقلم وما يُسطر بالقلم ، يقول تعالى:

﴿**نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: ١٢٩.

(٢) سورة العلق: ١ ـ ٥.

(٣) سورة القلم: ١.

وتتوالى الآيات الكريمة حَاثَّةً على العلم، آمرةً به، مُبَيِّنَةً آدابه وشروط النبوغ فيه، مُشيدةً بالعلماء، مبيِّنةً مكانتهم.

أما هذه المكانة التى وَضع الله العلماء فيها فإنها أسمى مكانة عند الله سبحانه وتعالى لعباده.

إن الله سبحانه يقول مبيناً مكانة العلماء:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾[1].

وفى هذه الآية الكريمة قَرَنَ اللهُ - سبحانه وتعالى - العلماءَ به وبملائكته فى شهادة التوحيد، أى: وَضَعَهُمْ فى أسمى مكانة إيمانية، وذلك أن أسمى مكانة إيمانية إنما هى « شهادة التوحيد »..

إنها:

« **أشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللّه** ».

أما الحث على العلم فى القرآن الكريم فإن هذا الكتاب العزيز بيَّن أن الإنسان - حتى فى الحالة التى يمنحه الله فيها النبوَّة والرسالة - لا يزال بحاجة إلى المزيد من العلم.

إن الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يأمر الرسول ﷺ بأن يجعل من شعاراته «الاستزادة فى العلم»، فيقول له:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران: ١٨.

(٢) سورة طه: ١١٤.

وأعلن رسول الله ﷺ أن الطريق إلى العلم هو طريق إلى الجنة . . يقول صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك :

« مَنْ سَلَكَ طريقاً يَبتغِى فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إلَى الجَنَّة ، وإنَّ المَلائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العِلْم ؛ رِضاً بما يَصنع ، وَإنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَواتِ ومَنْ فى الأرضِ .. حتَّى الحِيتَان فى الماءِ ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ على سَائرِ الكَواكِبِ ، وإنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ ، وإنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثوا دِيناراً ولا دِرْهَماً ، وإنَّما ورَّثوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » .

* * *

٢ـ العلم الذى يدعو إليه الإسلام

إن العلم ـ الذى يدعو إليه الإسلام ـ هو : العلم بالطبيعة ، والأحياء ، والكيمياء ، والطب ، وغير ذلك من العلوم المادية ، وهو بالضرورة أيضاً علم الدين من تفسير وحديث وفقه . .

وإن الآية الكريمة :

﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾(١) . .

إنما وردت فى معرض الحديث عن الكونيات المادية .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ**﴾(٢) .

وما من شك فى أنه بمقدار تعمق الإنسان فى الجانب العلمى على أساس من الإيمان ، وفى صدق وإخلاص ، تكون خشيته لله . .

ذلك أنه يرى من نواميس الكون ، ومن الإتقان فى الخَلْق ، ومن الحكمة فى التدبير ؛ ما يجعله يسجد لمبدع الكون ومنسِّقه .

وإن هؤلاء الذين يتصلون ـ مثلاً ـ بعلم التشريح من قرب ، أو يتخصصون فيه ، يرون من الإحكام المُحكَم ، ومن الدقة الدقيقة فى مختلف الأجهزة الجسمية ، وفى مفردات هذه الأجهزة ، ما يضطرهم اضطراراً إلى السجود لرب هذا التنسيق ، والترتيب ، والإبداع .

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ .　　(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

وليس علم التشريح ـ وحده ـ هو الذى يبهر العالِم المتبحِّر فيه . . وإنما يبهر علم الفلك العالم الفلكى : إنه يرى هذه النجوم ـ التى لا تكاد تُعَدُّ ـ تسير فى هذه السعة الكونية الهائلة فى ترتيب وتناسق وإحكام :

﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١) .

وعالِم الأحياء وهو يتأمل عوالمه ، ويُفاجَأ ـ كل يوم ـ بجديد وغريب وبديع فيها .

إن هؤلاء جميعاً وغيرهم يجدون أنفسهم ـ لا محالة ـ أمام صنع الله الذى أتقن كل شىء صنعاً . . فيقولون مع « القرآن الكريم » :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) .

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(٣) .

وصدق الله إذ يقول :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٤) .

---

(١) سورة يس : ٤٠ .
(٢) سورة الملك : ١ .
(٣) سورة الملك : ٢ـ ٤ .
(٤) سورة فاطر : ٢٨ .

لقد أحدث الإسلام فى الدنيا - بموقفه هذا من العلم - نهضة علمية، كان من ثمارها الحضارة الإسلامية التى كانت تسمّى «البحث فى الطبيعة وفى الكون» هذه التسمية الجميلة :

«العلم بسنن الله الكونية».

فعلم الطبيعة - فى الصورة الإسلامية - هو العلم بسنن الله الكونية .

وقد يتساءل إنسان عما إذا كان الإسلام أطلق العلم إطلاقاً أم قيَّده بقيود ؟

إن ﴿**اقْرَأْ**﴾[1] التى افتتح الله سبحانه بها وحيه الكريم قيَّدها منذ المبدأ مباشرة بأن تكون : ﴿**بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾[2] .

والعلم فى الإسلام ، هذا العلم بالدين وبالمادة ، لا يقيِّده فى الإسلام إلا أن يكون فى اتجاه ربَّانىٍّ .

إن الإسلام يوجب أن تكون « أسس العلم » متسمة بالخير ، ويوجب أن تكون « غاياته » منغمسة فى الخير ، ويجعل من العلم قُربَى إلى الله ، ويجعل منه عبادة لله ، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم .

ومن الملاحظات الدقيقة فى هذه الكلمات التى كانت فى افتتاح الوحى أن الله - سبحانه - لم يقل : اقرأ باسم الله ، وإنما

(١ ، ٢) سورة العلق : ١ .

قال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[1] .. أى : ﴿اقْرَأْ﴾[2] باسم المربِّى أى : ﴿اقْرَأْ﴾[3] فى إطار التربية الإلهية .

ومنذ اللحظات الأولى فى «الإسلام» اتسم العلم بالخير ، واستهدف الخير ، لم يستهدف العلم الإسلامى فى يوم من الأيام التنكيل بالإنسانية ، أو الاستعلاء ، أو التسابق من أجل إيجاد وسائل التدمير والتخريب ، كَلاَّ . . وإنما هو باسم المربِّى ، وكان العلم الإسلامى من أجل ذلك ضرورة وليس تَرَفاً .

وقد يتساءل إنسان أيضاً عما إذا كانت هذه النهضة العلمية التى دَوَّتْ فى أرجاء العالم - منطلقة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة - لها أثر فى النهضة الأوربية ؟

وعن ذلك نترك العالم الإنجليزى الكبير الأستاذ (بريفولت) صاحب كتاب (بناء الإنسانية) يتحدث ، وهو عالمٌ مُنصف ، أنصف الحضارة الإسلامية ، بعد أن ظلمها الغربيون قروناً متعددة . . إنه يقول :

« إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى - فى مدرسة أكسفورد - على خلفاء معلِّميه العرب فى الأندلس. وليس لروجر بيكون - ولا لسَمِيِّه الذى جاء بعده - الحق فى أن أنسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن (روجر بيكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين

(١ - ٣) سورة العلق : ١ .

إلى أوربا المسيحية وهو لم يملّ ـ قَطُّ ـ من التصريح بأن تَعلُّم معاصريه للغة العـربية ، وعلوم العرب : هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقَّة.

والمناقـشات التى دارت حول (واضـعى المنهج التجـريبى) هى طرف من (التحـريف الهائل) لأصول الحضارة الأوربية.

وقد كان منهج العرب التجريبـى فى عصر بيكون قد انتشر انتشـاراً واسعاً، وانكبَّ الناس ـ فى لهفٍ ـ على تحـصيله فى ربوع أوربا » .

ويقــول : « لقـد كان (العلم) أهـم ما جـادت به الحضـارة العربية على العالم الحديث ولكـن ثماره كانت بطيئة النضج. إن العبقرية التى ولَّدتها ثقافـة العرب فى إسبانيا لم تنهض ـ فى عنفـوانهـا ـ إلا بعـد مضى وقت طويـل على اختـفـاء تلك الحضارة وراء سُحب الظلام. ولم يكن العلم العربى وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحـياة ، بل إن مؤثرات أخرى كـثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثـت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية » .

ويقول : «فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلهـا إلى مؤثرات الثقافـة الإسلامية بصورة قاطعـة ، فإن هذه المؤثرات توجد ـ أوضح مـا تكون ـ فى نشـأة (الطاقة) التى تكـوِّن ما للعـالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهارد ـ

أى : فى العلوم الطبيعية ، وفى روح البحث العلمى » .

ويقول : « إن ما يدين به علمنا (لعلم العرب) ليس فيما قدَّموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم للثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه ؛ فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية.

وقد نظَّم أهل اليونان المذاهب ، وعمَّموا الأحكام ، ووضعوا النظريات.ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة،وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليونانى،ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدها الهلِّينى.

أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، ولطرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها أهل اليونان. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » .

* * *

٣ـ أهداف الرسالة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتَّبع هديه إلى يوم الدين ـ وبعد . .

فإن الإسلام حدَّد هدف الرسالة الإسلامية فى عدة آيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١).

ويذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ تفضُّله على المؤمنين بإرساله رسولاً من أنفسهم، ويحدد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الهدف من الإرسال، والحكمة منه فيقول:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

وفى سورة الجمعة يبين الله ـ سبحانه ـ أن ما فى السموات وما فى الأرض ينزِّهه سبحانه؛ إذ إنه يسبِّح له . ويذكر سبحانه من صفاته: الملك، القدوس، العزيز، الحكيم . . ثم يقول:

---

(١) سورة الجمعة: ٢ .

(٢) سورة آل عمران: ١٦٤ .

﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1] .

وهذه الآيات الكريمة ، وما يشبهها من القرآن الكريم ، لا تحتاج إلى تأمل بالغ ، أو تفكير مجهد ، من أجل فهم معانيها ، وذلك أن المعنى فى هذه الآيات الكريمة واضح كل الوضوح ، فهى تبين أن الحكمة فى إرساله ﷺ تتمثل فى أمرين :

١ ـ العلم.

٢ ـ التزكية.

العِلْم ـ إذن ـ فى الرسالة الإسلامية : شطرها ، بل هو شطرها الأساسى ، أى : الشطر الذى تقوم عليه التزكية ، إذ لا يتأتى أن تقوم التزكية على الجهل .

نشأ الإسلام حليفاً للعلم:

ولعل مما يبين الأهمية الكبرى التى منحها الإسلام للعلم أن نرجع بنظرة سريعة إلى اللحظات الأولى التى أشرق فيها فجر الرسالة الإسلامية .

روى الإمام البخارى ـ نضَّر الله وجهه ـ بسنده عن أم المؤمنين عائشة ﵂، وروت كتب السنة كذلك ، حديث بدء الوحى .

وهو حديث طويل ، وفيه أن رسول الله ﷺ ، بينما كان فى غار حراء يتعبد ، جاءه المَلَك ، فقال : « **اقرأْ** ».

---

(١) سورة الجمعة : ٢ .

قال : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذنى فغَطَّنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « **اقرأ** ».

قلت : ما أنا بقارئ .

فأخذنى فغطَّنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « **اقرأ** ».

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطَّنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] .

وحينما فسَّر المرحوم الشيخ محمد عبده هذه الآيات عقَّب عليها قائلاً :

« **لا يوجد بيان أبرع ، ولا دليل أقطع ، على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات** » .

لقد افتتح الله ـ سبحانه ـ الوحى فى الدين الإسلامى بهذه الآيات المعجزة الخالدة ، التى تذكر القراءة والكتابة والقلم ، والتى ترددت فيها مادة العلم أكثر من مرة .

وبعد أن نزلت هذه الآيات الكريمة ، نزل قوله تعالى :

---

(١) سورة العلق : ١ ـ ٥ .

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1] .

وفى هذه المرة الثانية من الوحى بدأ الله سبحانه بحرف من حروف الهجاء ، وأقسم بالقلم ، والكتابة ، فكان أول قَسَم فى القرآن هو القَسَم بالقلم وما يُسطر بالقلم .

أما اسم الكتاب الموحَى به ، فإنه : «**القرآن**» .

يقول الراغب الأصفهانى :

« قال بعض العلماء : تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لا لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار ـ تعالى ـ إليه بقوله : ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2]، وقوله: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[3]» .

والقرآن بتسميته . . وبأول آية نزلت منه . . وبأول قَسَم فيه :

يوجِّه الإنسان بطريق مباشر ، وبطريق إيحائى ، إلى الاتجاه نحو المعرفة : قراءةً وكتابةً وعلماً .

* * *

(1) سورة القلم: ١ .

(2) سورة يوسف: ١١١ .

(3) سورة النحل: ٨٩ .

٤ـ منزلة العلم فى الإسلام
عن طريق القصص

لقد نشأ القرآن حليفاً للعلم، وأشرق نوره مبشِّراً بالعلم، وأخذ القرآن ـ فيما بعد ـ يوالى الحث على العلم؛ بشتى الأساليب:

فيبيِّن لنا مثلاً أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق آدم عليه السلام علَّمه الأسماء كلها: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾(١).

ثم يبيِّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن آدم، بهذه المعرفة؛ أصبح أسمى من الملائكة، ويقول فى ذلك:

﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**﴾(٢).

﴿**فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾(٣).

ولم يكن للملائكة علم بها، فأجابوا فى تواضع:

﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾(٤).

وبيَّن لهم سبحانه مكانة آدم ـ بصورة غير مباشرة ـ حينما قال:

﴿**يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ**﴾(٥).

(١ ـ ٣) سورة البقرة: ٣١.
(٤) سورة البقرة: ٣٢.
(٥) سورة البقرة: ٣٣.

صدع آدم بالأمر ، وبيَّن الله سبحانه وتعالى النتائج حينما أنبأهم آدم بأسمائهم ، فقال :

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(1) .

ومن الأمور التى لها مغزاها الواضح ، والتى نشير إليها ، ولا نتعمق فيها : أن الله سبحانه وتعالى قال بعد ذلك مباشرة :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(2) .

لقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمره للملائكة بالسجود لآدم بعد أن بيَّن لهم أن آدم أعلم منهم . . واستجاب الملائكة للأمر فسجدوا .

فكأن السياق يوحى بسموٍّ مكانة العلم سموّاً يصل إلى درجة سجود الملائكة له .

وقصة أخرى ثرية بالمغزى والمعنى والحكمة :

إن رسل الله تعالى ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فى الذروة من المكانة والفضل ، وفى الذروة من العلم والحكمة . . . ومع ذلك فها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ يجدُّ فى السير هو وفتاه من أجل البحث عن علم أنبأه الله بوجوده ، وبعد جهد وصبر وجداه . . يقول سبحانه :

---

(1) سورة البقرة : ٣٣ .

(2) سورة البقرة : ٣٤ .

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾(١).

ويسيران، ويتعلم موسى رسول الله ـ عليه السلام ـ من صاحبه ما لم يكن يعلم، ومما أفادته هذه القصة ـ كما يقول البيضاوى ـ أن يداوم المرء على التعلم، ويتذلل للمعلِّم، ويراعى الأدب فى المقال.

ويأخذ منها السيوطى:

« استحباب الرحلة فى طلب العلم، واستزادة العالم من العلم، واتخاذ الزاد للسفر، وأنه لا ينافى التوكل، ونسبة النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازاً وتأدباً عن نسبتهما إلى الله تعالى، وتواضع المتعلم لمن تعلَّم منه ـ ولو كان دونه فى المرتبة ـ واعتذار المعلِّم إلى من يريد الأخذ عنه فى تعليمه ما لا يحتمله طبعه، وتقديم المشيئة فى الأمور، واشتراط المتبوع على التابع، وأنه يلزم الوفاء للشروط، وأن النسيان غير مؤاخذ به ».

وقصة ثالثة نذكرها لننتهى بها من الحديث فى العلم عن طريق

(١) سورة الكهف : ٦٥ ـ ٧٠ .

القصص القرآنى ، ولنتجه بعدها إلى الأسلوب القرآنى المباشر ، ثم إلى السُّنَّة النبوية الشريفة .

ها هو ذا سليمان عليه السلام ، يجلس بين أصفيائه ويتحدث معهم عن ملكة سبأ وعن عبادتها للشمس من دون الله ، وعن ردِّه للهدية التى أرسلتها إليه ملكة سبأ تريد بذلك أن يغضَّ الطرف عنها وعن زيغها وضلالها ، قائلاً حين ردَّها :

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾(1) .

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(2) .

ثم يلتفت سليمان إلى من حوله قائلاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(3) .

فردَّ عليه عفريت من الجن قائلاً :

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾(4) . .

وأجاب شخص آخر يصور القرآن إجابته على الوضع التالى :

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾(5) .

(1 ـ 5) سورة النمل : 36 - 40 .

ونَفَّذ الذى عنده علم من الكتاب ما قال، وجاء بالعرش فى لمح البصر.

فلما رأى سليمان العرش مستقراً عنده قال:

﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

والقرآن يعرِّفنا بهذه القصة أن العلم يفعل الأعاجيب، وأنه يفعل ما لا تفعله الجن.. وأن مقدرة «العَالِم» تصل إلى ما لم تصل إليه مقدرة «عفريت الجن».. وأنه بالعلم تُطوى الأرض، وتزول المسافات، وتتحقق المعجزات.

* * *

(١) سورة النمل: ٤٠.

٥ـ الطريق المباشر لبيان
مكانـة العلـم فى الإسـلام

والآن نأتى إلى موقف القرآن من العلم عن طريق مباشر ، أى : من خلال الآيات التى تتحدث عن العلم حاثة عليه مشيدة به .

يقول الله تعالى :
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] .

إنه بمقدار تعمق الإنسان فى الجانب العلمى ـ فى صدق وإخلاص ـ تكون خشيته لله تعالى ؛ ذلك أنه يرى من نواميس الكون ، ومن الإتقان فى الصنع ، ومن الحكمة فى التدبير ، ما يجعله ساجداً لمبدعه ومنسِّقه .

وإن هؤلاء الذين يتصلون مثلاً بعلم التشريح من قرب أو يتخصصون فيه ، يرون من الإحكام المحكم ، ومن الدقة الدقيقة فى مختلف الأجهزة الجسمية وفى مفردات هذه الأجهزة ما يضطرهم اضطراراً إلى السجود لرب هذا التنسيق ، والترتيب ، والإبداع .

وليس علم التشريح وحده هو الذى يبهر العالِم المتبحر فيه ، وإنما يبهر علم الفلك العالِم الفلكى ، ويبهر علم الأحياء عالِم

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ .

الأحيـاء، وهكذا نجـد انبهـاراً فى كل ميـدان من ميـادين المعـرفة الكونية: أرضها وسمائها، وما بين الأرض والسماء:

﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1].

وصدق الله سبحانه إذ يقول:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2].

وخشية الله التى هى ثمرة العلم أساس من أهم أسس إسلام الوجه لله، ومن هنا كانت ضرورة العلم فى الإسلام .. إنه ضرورة وليس ترفاً، فهو من أسس الإسلام نفسه.

ومن أجل ذلك كان من مقومات شخصية المسلم «العلم».. العلم بالكون، وبالإنسان، وبالنفس، وبكل ما تتسع له الكلمات من معنى كريم.

* إلام تؤدى الخشية؟
* إلام ينتهى العلماء الصادقون المؤمنون؟

يقول الله تعالى:

---

(١) سورة الملك: ١ ـ ٤.

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١) .

إنهم يصلون ـ عن طريق العلم الذى يثمر الخشية ـ إلى التوحيد . .

التوحيد الذى هو سمة الدين الإسلامى ـ كما يرى البيرونى ـ والذى هو فى حقيقة الأمر سمة التدين الصادق .

ويشهد العلماء « التوحيد » مع الله سبحانه ، ومع الملائكة الأطهار . إن الله سبحانه قرن العلماء به وبملائكته فى شهادة التوحيد ، وهذا أسمى ما يمكن أن يصل إليه تكريم العلماء من مكانة .

وشهادة التوحيد التى هى قمة الركن الأول للإسلام ، وهو :

« **أشهد أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللّه وأشهد أنَّ محمداً رسولُ اللّه** » . . لا يشهدها إلا العلماء المؤمنون .

وشهادة التوحيد التى هى منتهى ما يمكن أن يصل إليه السالك فى معراجه إلى الله سبحانه لا تتحقق إلا فى العلماء المؤمنين .

إن شهادة التوحيد هذه قد وجَّه الله الأنظار إليها بأساليب شتَّى ، ومن هذه الأساليب ما لا يقدِّره ـ فى دقته وروعته الرائعة ـ إلا العلماء .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) .

ثم يعقِّب الله على الآيات بأنه مهما بلغ العلماء بعلمهم، فإن المجهول كثير، وأنه لا يعلم هذا المجهول المغيَّب إلا الله سبحانه، والتعقيب الكريم معناه أن العلم لا ينتهي إلى غاية، وأن كشف المجهول رسالة لا تنتهي ما دامت السموات والأرض، فيقول سبحانه:

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(٢) .

---

(١) سورة النمل : ٥٩ ـ ٦٤ .

(٢) سورة النمل : ٦٥ .

ومن أجل شهادة التوحيد، أو من أجل وصول الإنسانية إلى أقصى ما ينتهى إليه - بالنسبة للإنسانية : كلٌّ بحسب استطاعته - فى معارج القدس، حثَّ الإسلام على العلم ووجَّه إليه، وجعله من أسس الدين نفسه.

لقد حَثَّ عليه فى صور بلغت من الروعة حَدّاً لا يُجَارَى .

والآيات والأحاديث التى وجَّهت الأمة الإسلامية إلى العلم كثيرة مستفيضة، وإذا كان العلماء يشهدون التوحيد مع الله ومع الملائكة، فإن منزلتهم بالمكان السامى، ودرجاتهم سامية، فى الرفعة والعلو :

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) .

ولهذه الجوانب من فضل العلم والعلماء، أمر الله سبحانه وتعالى رسوله - وهو قدوة المسلمين وأسوتهم - أن يقول :

﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٢) .

رب زدنى علماً فى كل يوم، بل فى كل لحظة، ذلك ما يجب أن يكون شعار المسلم، وإذا ما ازداد المسلم علماً ازداد خشيةً، وإذا ما ازداد خشيةً تحقق فيه إسلام الوجه لله على صورة أكمل.

ومن الملاحظات التى يجب أن تكون دائماً فى الذاكرة، أن الكلمة الأولى التى نزل بها الوحى على المصطفى ﷺ، مبشِّرة بعهد من النور جديد، هى كلمة : « اقرأ ».

---

(١) سورة المجادلة : ١١ .   (٢) سورة طه : ١١٤ .

مكانة العلم فى السنة النبوية الشريفة:

ونأتى الآن إلى موقف مَنْ أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نتخذه أسوة :

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

لنأتِ الآن؛ لنتبين موقف رسول الله ﷺ من العلم :

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبَةً من كُرَب الدنيا نَفَّسَ اللَّهُ عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة ، ومَنْ سترَ مسلماً سَتَرَهُ اللَّهُ فى الدنيا والآخرة، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه فى الدنيا والآخرة ، واللَّهُ فى عَون العبد ما دَام العبدُ فى عَون أخيه ، ومَنْ سَلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سَهَّلَ اللَّهُ له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمعَ قومٌ فى بيت من بيوت اللَّه يَتْلُونَ كتابَ اللَّه ويتدارسونه بينهم إلا حَفَّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السَّكينة، وغشيتهم الرحمة، وذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عنده، ومَنْ أبطأ بهِ عَمَلُهُ لم يُسْرِعْ بهِ نَسَبُهُ »[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

(٢) رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبَّان فى صحيحه ، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

« إنَّ مَثَلَ العُلَمـاءِ فى الأرضِ كَمَثَـلِ النُّجُومِ يُهْتَـدَى بهَا فى ظُلُمَاتِ البَـرِّ والبَحْـرِ . فَإذا انطمستِ النُّـجومُ : أوشَكَ أنْ تضلَّ الهُدَاةُ »[1] .

وعن كـثيـر بن قيس ، قـال : كنت جـالسـاً مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق، فجاء رجل فقال : يا أبا الدرداء ، إنى جئتك من مدينة الرسول ﷺ ، مـا جئت لحاجـة . قـال : فإنى سـمـعت رسول الله ﷺ يقول :

« مَنْ سَلَكَ طريقـاً يطلبُ فيـه علْماً ، سَلَكَ اللَّهُ به طريـقاً منْ طُرقِ الجَنَّة ، وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَـها رِضاً لطالبِ العِلْمِ ، وإنَّ العَـالِمَ يَسْتَـغْـفِـرُ له مَنْ فى السَّـمـواتِ ومَنْ فى الأرضِ والحيتانُ فى جَوْفِ الماء ، وإنَّ فَـضْلَ العَالمِ عَلَى العابدِ كفضل القَمَرِ ليلةَ البَدْر عَلَى سَائر الكَواكب،وإنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لـم يُوَرِّثوا دِيناراً ولا دِرْهَماً ، وإنما ورَّثوا العِلْمَ ، فَمَنْ أخَذَهُ أخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[2] .

وعن أبى أمامة الباهلى قال : ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ :

« فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أدْنَاكُم» .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه أحمد، والترمذى، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمى، وسمَّاه الترمذى: قيس ابن كثير.

ثم قال رسول الله ﷺ :

«إنَّ اللَّهَ ومَلائكتَهُ، وأهلَ السَّموات والأرض، حتَّى النَّملة فى جُحرها، وحتَّى الحُوت، لَيُصلُّونَ على مُعلِّم الناسِ الخيرَ» [1] .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إنَّ اللَّهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَوْحَى إلىَّ أنه مَنْ سَلَكَ مَسْلَكاً فى طَلَبِ العِلْم ، سَهَّلْتُ له طريقَ الجَنَّة ، ومَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْه أَثَبْتُهُ عليهما الجَنَّة ، وفَضْلٌ فى عِلْمٍ خيرٌ مِنْ فَضْلٍ فى عِبَادَةٍ، وَمَلاَكُ الدِّينِ الوَرَع» [2] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«مَنْ خَرَجَ فى طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فى سَبيلِ اللَّهِ حتَّى يَرْجِع» [3] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«لا حَسَدَ إلا فى اثنتين: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالاً فسلَّطه على هلكته فى الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ الحكمةَ فهو يَقْضِى بِها ويُعلِّمها» [4] .

وعن عون قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

«مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَان : صَاحِبُ العِلْم ، وصَاحِبُ الدنيا ، ولا يَستويان . أما صاحبُ العلم فيزدادُ رضاً للرحمن ، وأما صاحبُ الدنيا فيَتمادى فى الطغيان » . ثم قرأ عبد الله :

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح . (٢) رواه البيهقى فى «شعب الإيمان».
(٣) رواه الترمذى والدارمى . (٤) متفق عليه .

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾(١) .

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٢) »(٣) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا مَاتَ الإنسانُ انقطعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثلاثة :

إلاَّ منْ صَدَقةٍ جَاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفعُ بهِ، أو وَلَدٍ صَالحٍ يَدعو له » (٤) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنَّ مِمَّا يلحقُ المؤمنَ مِنْ عَمَلِهِ وحَسَنَاتِهِ بعدَ موتِهِ: عِلْماً عَلَّمَهُ ونَشَرَهُ، وولداً صالحاً تَرَكَهُ، ومُصْحَفاً ورَّثه، أو مسجداً بَناه ، أو بيتاً لابن السَّبيل بَناه، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أَخْرَجَهَا مِنْ مالهِ فى صحتهِ وحياتهِ . يلحقهُ مِنْ بعدِ موته»(٥) .

وعن صفوان بن عسال المرادى رضي الله عنه ، قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد متكئ على بُرْدٍ له أحمر ، فقلت له : يا رسول الله ، إنى جئت أطلب العلم . فقال :

« مَرْحَباً بِطَالبِ العلْم ، إنَّ طالبَ العلْم تَحُفُّهُ الملائكةُ بأَجْنحَتها ، ثُمَّ يركبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً حتَّى يَبْلُغوا السَّمَاءَ مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِمَا يطلبُ » (٦) .

---

(١) سورة العلق: ٦ ، ٧.

(٢) سورة فاطر : ٢٨ .

(٣) رواه الدارمى .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه ابن ماجه، والبيهقى فى «شعب الإيمان».

(٦) رواه أحمد. والطبرانى بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه، أن النبى - عليه الصلاة والسلام - قال :

« **أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ المَرْءُ المُسْلِمُ عِلْماً ثُمَّ يُعَلِّمَهُ أَخَاهُ المُسْلِمَ** » [١] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« **مَثَلُ عِلْمٍ لا يُنْتَفَعُ بِهِ كَمَثَلِ كَنْزٍ لا يُنْفَقُ مِنْهُ فى سَبِيلِ اللهِ** »[٢] .

العلم الذى يدعو إليه القرآن والحديث:

وقد يظن بعض الناس أن العلم الذى يدعو إليه القرآن إنما هو العلم بالدين ، أى : العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والعلم بالفروض الدينية من صلاة وصيام وزكاة وحج ، والعلم بالقانون الأخلاقى والتشريع الإلهى .

والواقع أن العلم بالدين : عقيدةً وأخلاقاً وتشريعاً ؛ مما يحث عليه الإسلام ، بل هو فى المرتبة الأولى ، لأن الإيمان هو الأساس فى كل دعوة دينية منذ أن كان الدين .

ومعرفة الإنسان بالله وصلته بالله عن طريق رسله ، هى أسمى معرفة بالنسبة للإنسان باعتباره فرداً ، وبالنسبة لأمن المجتمع وطمأنينته على الدماء والأموال والأعراض .

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن ، من طريق الحسن - أيضاً - عن أبى هريرة .

(٢) رواه أحمد ، والدارمى .

بيد أنه إذا كانت المعرفة بالله عن طريق رسله لها الصدارة فى الأجواء الدينية ، فإن القرآن بيَّن لنا أن الكون كله هو كتاب للعلم بالله سبحانه وتعالى . إنه مجموعة من النواميس الإلهية التى يؤدى اكتشافها إلى زيادة المعرفة بالله وزيادة الخشية منه .

وتَأمَّلْ معى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [١] .

لقد أتى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [٢] . .

فى معرض الحديث عن تنسيق العالم المادى وترتيبه والإبداع فيه .

لقد دفع القرآن المسلمين دفعاً إلى مختلف مجالات المعرفة فى الكون . . لقد دفعهم إلى مجال المعرفة بالتاريخ الذى يسمِّيه « أيام الله » . . أيام الله التى أنعم فيها على من اتَّبع هديه واستقام على أمره ، ودمَّر فيها من سار فى طريق المعصية والشر . أيام الله التى نصر فيها أولياءه ، وخذل فيها أعداءه :

---

(١) سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة فاطر : ٢٨ .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ (٣) .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٤) .

ودفعهم إلى المعرفة بالفلك حينما أقسم ببعض الكواكب مشيراً إلى منزلتها بهذا القَسَم ، وحينما أقسم بمواقع النجوم ، والقَسَم بمواقع النجوم فيه ما فيه من بعث للتأمل والتدبر والبحث . . يقول سبحانه :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٥) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة العنكبوت : ٢٠ .
(٢) سورة الروم : ٤٢ .
(٣) سورة غافر : ٢١ .
(٤) سورة الأنعام : ٦ .
(٥) سورة الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ .
(٦) سورة النجم : ١ .

ويبيِّن ـ سبحانه ـ أنه ربُّ الشِّعرى :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [1] .

ويتحدث سبحانه عن النظام الدقيق الذى تسير عليه الأفلاك :

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [2] .

ويبيِّن ـ سبحانه ـ الدقة فى الصنع :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [3] .

وهذه النجوم والأفلاك التى أقسم الله بها ، وأقسم بمواقعها ، أعلن ـ سبحانه وتعالى ـ أنه سَخَّرها لنا ، وامتنَّ ـ سبحانه وتعالى ـ علينا بتسخيرها . .

يقول سبحانه :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [4] .

---

(١) سورة النجم: ٤٩ .

(٢) سورة يس: ٤٠ .

(٣) سورة الملك: ١ ـ ٤ .

(٤) سورة إبراهيم: ٣٣ .

ويقول تعالى فى سورة النحل :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

ويقول سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

والمعنى الذى أحبه الله سبحانه وتعالى من وراء بيان ذلك ، ومن امتنانه ، هو أن يصل الإنسان الى اكتشاف قوانينها ، إلى تسخيرها ، إلى السيطرة عليها ، إلى امتلاكها .

وإنه لمن الجهل أن يتحدث إنسان عن غزو الفضاء ، وعن الوصول إلى القمر ، ليقول : إن الإسلام يعارض ذلك .

إنه من الجهل بالإسلام أن يقول إنسان ذلك ، فقد أنزل القرآن الكواكب منزلتها بينما كان الآخرون يقدّسونها ، بل ويعبدونها .. يقول سبحانه لهؤلاء الذين سجدوا لها وعبدوها :

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[3].

إنها مخلوقات ، الله ربُّها ، وكما أنه - سبحانه - ربُّ الشِّعرى ،

---

(١) سورة النحل : ١٢ .

(٢) سورة لقمان : ٢٩ .

(٣) سورة فصلت : ٣٧ .

فإنه ربُّ كل كوكب وربُّ كل نجم ، وكما أنه خلق الشمس والقمر ، فهو الخالق لكل السموات التى زيَّن السماء الدنيا منها بزينة الكواكب .

وكما دفع القرآن المسلمين إلى التعرف على « أيام الله » وكما دفعهم إلى النظر والتأمل والبحث فى النجوم والكواكب ، فإنه دفعهم ـ على وجه العموم ـ إلى البحث والنظر والتأمل فى الكون كله ، والآيات القرآنية فى هذا المجال تتعاون وتتناسق لتوجِّه الإنسان إلى التنقيب فى جميع مجالات الكون لاكتشاف نواميس الله فى كتابه هذا المنظور . . يقول سبحانه :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢) .

ويذكر الله سبحانه وتعالى ـ فى أوائل سورة الرعد ـ ما يلى :

---

(١) سورة البقرة : ١٦٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩٠ .

﴿الۤمۤر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (١) الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (٢) وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٣) وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ (١) .

ويمتن الله سبحانه وتعالى على الإنسانية أجمع بآياته الباهرة، ضارباً المثل للعقلاء المستبصرين، ليتجهوا بالبحث والدراسة إلى ما وجههم سبحانه نحوه . . يقول سبحانه:

﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (١٧) وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون (١٨) يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون (١٩) ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون (٢٠) ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة

(١) سورة الرعد: ١ ـ ٤ .

وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

ولقد سخر الله ـ سبحانه وتعالى ـ البحر . . يقول سبحانه :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾[٢].

ويقول تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة الروم: ١٧ـ ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٢.

تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١] .

ويقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [٢] .

وينتهي الأمر في القرآن، بأن الله سبحانه وتعالى سَخَّر الكون كله للإنسان.

يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [٣] .

ويقول سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [٤] .

ويقول تعالى :

---

(١) سورة النحل : ١٤، ١٥ .
(٢) سورة لقمان : ٣١ .
(٣) سورة لقمان : ٢٠ .
(٤) سورة ق : ٦ ـ ١١ .

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1]؟ .

ومعنى هذا كله : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوجِّه نظر الأمة الإسلامية إلى دراسة كتابه المرئيِّ . . إنه سبحانه يوجِّه نظرها إلى البحث فى الآفاق على مختلف أوضاعها . . إنه سبحانه يوجِّه نظرها إلى البحث فى الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2] .

* * *

(١) سورة الغاشية : ١٧ـ ٢٠ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

٦ـ عن فضل العلم الدينى

ومع ذلك فإنه إذا كنا قد تحدثنا للآن ـ فى الأغلب الأعم ـ عن العلم فى مجاله الكونى ، أى : فى مجاله المادى المحسوس .

وإذا كانت الأحاديث السابقة فى «فضل العلم» على وجه العموم ، فإنه مما لا مرية فيه أن العلم الدينى خاصة قد وردت فيه أحاديث كثيرة أيضاً . .

وأن ما نذكره هنا فيما سبق فى العلم على وجه العموم ، أو فى العلم الدينى خاصة ، لا يحيط بكل ما ورد فى فضل العلم ، وإنما نذكر غيضاً من فيض :

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« أقربُ الناسِ منْ دَرَجةِ النبوَّةِ : أهْلُ العِلْمِ وأهْلُ الجِهَاد ، أمَّا أهلُ العِلْمِ فَدَلُّوا الناسَ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل ، وأمَّا أهلُ الجِهَادِ فَجَاهَدُوا بِأسْيَافِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل »[١] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« مَا اجْتَمَعَ قَومٌ فى بَيْتٍ منْ بُيُوتِ اللَّه ، يَتْلُونَ كتابَ اللَّه ، ويَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَينهم ، إلاَّ نزلتْ عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وحَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ ، وذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[٢] .

---

(١) رواه أبو نعيم ، والجو الإسلامى كله يؤيده .

(٢) رواه مسلم ، وأبو داود ، وغيرهما .

وعن معاوية، قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خيرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّين، وإنَّمَا أنا قَاسِمٌ واللَّهُ يُعْطِى »(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ عَبْدٍ سَمِعَ مَقالتى فَحفظَها وأدَّاها، فرُبَّ حَامل فِقْه غيرُ فَقيه، ورُبَّ حَامِل فقْه إلى مَنْ هو أفْقَهُ منه، ثلاثٌ لا يُغَلُّ عليها قلبُ مسلم: إخْلاَصُ العَمَل للَّه، والنَّصيحَةُ للمُسْلِمين، ولزومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«فَقِيهٌ واحدٌ أشدُّ عَلَى الشَّيطانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ »(٣).

وعن سفيان أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب:

« مَنْ أربابُ العِلْم ؟ . قال: الذين يعملون بما يعلمون . قال: فما أخرجَ العلمَ من قلوب العلماء ؟. قال: الطمع »(٤).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الشافعى، والبيهقى فى المدخل.

(٣) رواه الترمذى، وابن ماجه.

(٤) رواه الدارمى.

فيما أعلم عن رسول الله ﷺ، قال:

«إنَّ اللَّهَ - عَزَّ وجَلَّ - يَبْعَثُ لهذهِ الأُمَّةِ عَلَى رأسِ كلِّ مِائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[1].

من آداب العلماء:

ولقد حذر رسول الله ﷺ العلماء، وأنذرهم، وبيَّن لهم آداباً من آداب العلم والعلماء كثيرة، منها ما يلي:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

« يَا أيُّها النَّاسُ مَنْ عَلِمَ شيئاً فليقُلْ بهِ، ومَنْ لَمْ يعلمْ فليقلْ: اللَّهُ أعلم . فإنَّ مِنَ العِلْمِ أنْ تقولَ لِمَا لا تعلم : اللَّهُ أعلم . قال اللَّهُ تعالى لنبيه:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2]»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ أُناساً منْ أُمَّتي يَسْتَفْقِهُونَ في الدِّين ، ويَقْرَأونَ القُرآنَ ، ويَقُولُونَ : نَأْتِي الأُمَراءَ فَنُصِيبُ منْ دُنْيَاهُمْ ونَعْتَزِلُهُمْ بدِينِنَا، ولا يكونُ ذلكَ ، كَمَا لا يُجْتَنَى مِنَ القَتَادِ إلاَّ الشَّوْكُ ، كذلكَ لا يُجْتَنَى منْ قُرْبِهِمْ إلاَّ الخَطَايَا ».

وقال عمر رضي الله عنه لأحد الصحابة:

«هل تَعرفُ ما يَهْدِمُ الإسْلاَمَ ؟. قال: قلت: لا. قال: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ العَالِمِ، وجِدالُ المُنَافِقِ بالكتابِ، وحُكْمُ الأَئِمَّةِ المُضلِّين»[4].

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) سورة ص: ٨٦.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه الدارمي.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ ، أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نارٍ»[1].

الصحابة والحث على العلم:

ولقد تابع المسلمون القرآن والحديث الشريف فى الحث على العلم، ونكتفى فى هذا بما قاله سيدنا معاذ بن جبل ﷺ . .

روى الإمام الغزالى فى «الإحياء» قال:

عن معاذ بن جبل ﷺ ـ ورأيته مرفوعًا ـ قال:

« تَعلَّموا العِلْمَ ، فَإنَّ تَعلُّمَهُ للَّه خشيةٌ ، وطَلَبَهُ عِبَادةٌ ، ومُذَاكرتَهُ تَسبيحٌ ، والبحثَ عنه جِهَادٌ ، وتعليمَهُ لمنْ لا يعلمُهُ صَدَقةٌ ، وبَذْلَهُ لأهلهِ قُربةٌ ، لأنَّهُ مَعالمُ الحَلال والحَرام ، ومَنارُ سُبُلِ أهلِ الجَنَّة ، وهو الأنيسُ فى الوَحْشَة ، والصَّاحبُ فى الغُربة ، والمُحَدِّثُ فى الخَلْوَة ، والدَّليلُ عَلَى السرَّاء والضَّرَّاء ، والسِّلاحُ عَلَى الأعْدَاء ، والزَّينُ عندَ الأخلاَّء ، ويرفعُ اللَّهُ بهِ أقواماً ؛ فَيَجْعَلُهُمْ فى الخَيْرِ قَادةً ؛ تُقْتَفَى آثارُهُمْ ، ويُقْتَدَى بفِعَالِهِمْ ، ويُنْتَهَى إلى رَأيِهِمْ ، تَرغبُ المَلائكَةُ فى خُلَّتِهِمْ ، وبأجْنحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ ، ويَسْتَغْفرُ لَهُمْ كلُّ رَطْبٍ ويَابِسٍ ، وحِيتَانُ البَحْرِ وهَوامُهُ ، وسِبَاعُ البَرِّ وأنْعَامُه ، لأنَّ العِلْمَ حياةٌ

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى.

القلوبِ مِنَ الجَهْل ، ومَصابيحُ الأبْصَـار مِنَ الظُّلَم ، يبلغُ العَبْدُ بالعِلْمِ منازلَ الأَخْـيَارِ والـدَّرَجَاتِ العُـلاَ فى الدُّنيا والآخـرَة ، والتفكيرُ فيه يَعْدلُ الصِّيامَ، ومُدَارسَتُهُ تَعْدِلُ القيامَ، به تُوصَلُ الأَرْحَـامُ ، وبه يُعْرَفُ الحَـلالُ مِنَ الحَـرَام ، وهو إمَامُ العَـمَل ، والعَمَلُ تَابِعٌ ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ ، ويُحْرَمُهُ الأشْقِيَاءُ » .

* * *

٧ـ الثمرة التى أدّى إليها الحثّ على العلم

وكانت نتيجة ذلك كله أن اندفع المسلمون إلى البحث فى جميع ميادين الحياة، روحية كانت أو عقلية أو مادية، ونشأ ـ عن ذلك ـ الحضارة الإسلامية التى أنتجت أمثال: جابر بن حيان فى الكيمياء، وابن الهيثم فى الطبيعيات، وأبى بكر الرازى فى الطب، وابن سينا فى الطب كذلك والفلسفة، والغزالى فى الجانب الروحى، وابن رشد فى الفلسفة العقلية، وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ، والخوارزمى فى الجبر، وكثيرين غيرهم.

ونضرب الآن بعض الأمثلة على ما وصل إليه علماء الإسلام من مكانة مرموقة. .

الكندى:

يقول دى بور عن الكندى فى دائرة المعارف الإسلامية:

« إن كوردان ـ وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة ـ يَعُدُّ الكندى واحداً من اثنى عشر، هم أنفذ الناس عقلاً، وإنه كان فى القرون الوسطى يعتبر واحداً من ثمانية، هم أئمة العلوم الفلكية ».

والطريف فى حياة الكندى، أنه كان يجرى الكثير من التجارب حتى تقوم معرفته ـ فى الميدان التجريبى ـ على أساس سليم.

وأنه كان يعرف الموسيقى نظرياً وعملياً، ويمزج الموسيقى بالطب فى أمر العلاج.

ويحكى عنه فى هذا الميدان حكاية طريفة، وسواء أصَحَّتْ أم لم تصحّ، فإنها تدل على أساس من معرفة الكندى بالموسيقى وبالطب، ومن مزج بينهما.

روى صاحب كتاب « أخبار الحكماء»:

« وقد ذكروا من عجيب ما يحكى عن يعقوب بن إسحاق الكندى هذا: أنه كان فى جواره رجل من كبار التجار، مُوسَّع عليه فى تجارته، وكان له ابن قد كفاه أمر بيعه وشرائه وضبط دخله وخرجه. وكان ذلك التاجر كثير الإزراء على « الكندى » والطعن عليه مدمناً لتعكيره والإغراء به فعرض لابنه سكتة فجأة، فورد عليه من ذلك ما أذهله، وبقى لا يدرى ما الذى له فى أيدى الناس وما لهم عليه، مع ما دخله من الجزع على ابنه، فلم يدع بمدينة السلام طبيباً إلا ركب إليه، واستركبه لينظر ابنه ويشير عليه من أمره بعلاج، فلم يجبه كثير من الأطباء - لكبَر العلَّة وخطرها - إلى الحضور معه، ومن أجابه منهم فلم يجد عندَه كبير غَناء.

فقيل له: أنت فى جوار فيلسوف زمانه، وأعلم الناس بعلاج هذه العلَّة، فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب.

فدعته الضرورة إلى أن يحمل على« الكندى» بأحد إخوانه: فثقل عليه فى الحضور فأجاب وسار إلى منزل التاجر فلما رأى

ابنه، وأخذ مجلسه، أمر بأن يحضر إليه مع تلامذته فى علم «الموسيقى» ومن قد أتقن الحِذْق بضرب العود، وعرف الطرائق المحزنة المزعجة، والمقوية للقلوب والنفوس فحضر منهم أربعة نفر فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه، وأن يأخذوا فى طريقة أوقفهم عليها، وأراهم مواقع النغم بها من أصابعهم على «الدساتين» ونقلها .

فلم يزالوا يضربون فى تلك الطريقة، و« الكندى » آخذٌ مجسَّ الغلام وهو فى خلال ذلك يمتدُّ نَفَسُهُ ويَقْوَى نَبْضُهُ، ويرجع إليه نَفَسُهُ شيئاً بعد شىء إلى أن تحرَّك ، ثم جلس وتكلم، وأولئك يضربون فى تلك الطريقة دائماً لا يفترون .

فقال« الكندى» لأبيه : سل ابنك عن علم ما تحتاج إلى عمله، مما لك وعليك وأثبته ، فجعل الرجل يسأله وهو يخبره، ويكتب شيئاً بعد شىء .

فلما أتى على جميع ما يحتاج ،غفل الضاربون عن تلك الطريقة التى كانوا يضربونها وفتروا، فعاد الصبى إلى الحال الأولى وغَشيَهُ السُّكات؛ فسأله أبوه أن يأمرهم بمعاودة ما كانوا يضربون به، فقال :

هيهات، إنما كانت صبابةٌ قد بقيت من حياته، ولا يمكن فيها ما جرى، ولا سبيل لى ولا لأحد من البشر إلى الزيادة فى مدة من قد انقطعت مدته؛ إذ قد استوفى العطية والقسم الذى قسم الله له» .

ابن الهيثم:

وقد كان ابن الهيثم يتخير الأماكن التى يجرى فيها تجاربه فى الضوء ثم وضع كتابه عن تجربة، ولقد كان كتابه مصدر الإلهام لكثير من علماء الغرب، فى أبحاثهم عن الضوء والحرارة.

وعن ابن الهيثم يقول سارتون: إنه من أكبر الباحثين فى علم البصريات(الضوء) فى جميع الأزمان.

ابن النفيس:

إن الغرب يشيد بـ« هارفى » باعتباره مكتشف الدورة الدموية، وينسى الغرب أو يتناسى ما قام به ابن النفيس من تجارب ومن ملاحظات واختبارات وصل على أساس منها إلى اكتشاف الدورة الدموية قبل «هارفى» بعدة قرون. . لقد أثبت ابن النفيس أن الدم ليس مستقراً ثابتاً فى الأوردة والشرايين، بل هو سائل سائر يدور فى جميع أجزاء الجسم.

ابن يونس:

وابن يونس يخصِّص الكثير من وقته للنظر فى الساعات، وتطويرها ويخترع بندول الساعة الذى نسميه « الرقَّاص».

يقول الدكتور عبد الحليم منتصر فى كتابه « محاضرات فى العلوم عند العرب »:

« ولقد رصد ابن يونس كسوف الشمس وخسوف القمر فى

القاهرة، وقد وصف فى زيجه الحاكمى الطريقة التى اتبعها فلكيُّو العرب فى عصر المأمون فى قياس محيط الأرض.

وهو الذى اخترع البندول، وبذلك يكون قد سبق «جاليليو» بعدة قرون، وكان يُستعمل لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد، كما استُعمل فى الساعات الدقَّاقة، وقد برع ابن يونس فى حساب المثلثات وأجاد فيها، وفاقت بحوثُه بحوثَ كثير من الرياضيين، وقد حل مسائل صعبة فى المثلثات الكروية، واستعان فى حلها بالمسقط العمودى للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقى، ومستوى الزوال.

وابتدع قوانين ومعادلات كان لها قيمة كبرى قبل اكتشاف اللوغاريتمات».

البيرونى:

يقول عنه المستشرق الألمانى الذى نشر بعض كتبه: إنه أكبر عقلية ظهرت على مجرى التاريخ، وكتبه عن عقائد الهند، وعن المجتمع الهندى فى عصره، تعتبر من المصادر الأولى فى الدراسة عن الهند فى العصر الحاضر.

ولقد روى عن أبى الريحان البيرونى قصة واقعية تبين مدى حرصه على العلم:

روى ياقوت فى «معجم الأدباء»، عن الفقيه على بن عيسى الوالجى.. قال:

« دخلت على أبى الريحان وهو يجود بنفسه، قد حشرج نفسه، وضاق به صدره، فقال فى تلك الحال: كيف قلت لى يوماً حساب الجدَّات الفاسدة: (يعنى: ميراث الجدَّات لأم). فقلت له - إشفاقاً عليه: أفى هذه الحالة ؟! قال لى: يا هذا، أودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيراً من أن أخلِّيها وأنا جاهل بها ؟

فأعدت ذلك عليه وحفظه.

وخرجت من عنده فسمعت الصراخ وأنا فى الطريق ».

ولقد كان البيرونى من كبار العلماء فى التاريخ، بل يقول المستشرق (سخاو) عنه إنه أكبر عقلية علمية فى التاريخ، ومن كبار العلماء فى علم الفلك.

ويقول المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام عنه:

« هو من أعلام العلماء فى تاريخ الإنسانية كلها ».

ولسنا هنا بصدد التأريخ لعلماء المسلمين، ونكتفى بكلمة للدكتور عبد الحليم منتصر عن ابن الهيثم، وعن البيرونى.. إنه يقول فى كتابه النفيس « محاضرات فى العلوم عند العرب »:

«يقول ابن الهيثم: إنه ما مدت له الحياة، سيبذل جهده، ويستفرغ قوته، فى التأليف، متوخِّياً أموراً ثلاثة:

أولها: أن يجد الناس فى كتبه بعد موته الفائدة والعلم اللذين يقدمهما لهم فى حياته.

وثانيها : أن يجعل من التأليف وتدبيج الرسائل ارتياضاً لنفسه بهذه الأمور .

وثالثها : أن يدخر من تلك التآليف عدة للشيخوخة وأوان الهرم .

وعندما أراد أحد الأمراء أن يُجرى عليه أموالاً كثيرة ، قال ابن الهيثم :

«يكفينى قوتُ يوم وتكفينى جارية وخادم ، فما زاد على قوت يومى ، إن أمسكته كنتُ خازنك ، وإن أنفقته كنت قهرمانك ، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين ، فمن ذا الذى يشتغل بأمرى وعلمى .

«فما قَبِلَ بعد ذلك إلا نفقةً احتاج إليها ولباساً متوسطاً .

وقد رد ابن الهيثم لأحد الأمراء ما كان قد دفعه أجر تعليمه قائلاً :

«خُذْ أموالك بأسرها فلا حاجة بى إليها ، وأنت أحوج إليها منى ، عند عودتك إلى مُلكك ، ومسقط رأسك ، واعلم أن لا أجرة ولا رشوة ولا هدية فى إقامة الخير» .

ويقول سارتون عن ابن الهيثم:

إنه أكبر عالم طبيعى مسلم ، ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر (الضوء) فى جميع الأزمان .

فقد كان أساس الأخلاق عند ابن الهيثم إيثار الحق وطلب العلم، ألسنا نجد فى خُلُق ابن الهيثم - العالم العربى المصرى - خُلُق العالم الفاضل، ألسنا نرى أنه مثلٌ يُحتذى فى حياته، وأنه لمثلٌ يُحتذى به فى عصره، ومن بعده بنحو ألف من الأعوام »[1].

وكذلك تميز البيرونى بعقلية علمية نادرة المثال، نستطيع أن نضعها فى مصافِّ أرقى العقليات العلمية فى الوقت الحاضر، ومن عجب أن يتميز البيرونى فى فنون مختلفة غاية الاختلاف، فهو فى الفلك «فلكىٌّ ممتاز» بشهادة علماء الفلك من الفرنجة والعرب، وهو فى الجيولوجيا «جيولوجىٌّ ممتاز» بشهادة الجيولوجيين المعاصرين.

وهو فى التاريخ مؤرِّخ محقِّق مدقِّق واسع الاطِّلاع شامل المعرفة، قادر على الاستقراء والاستنتاج، وإنما استطاع أن يجمع بين هذه العلوم بما أوتى من قدرة فائقة على البحث والدرس، وما وُهبَ من ذهن خارق جبَّار.

يُروى أنه لما أتمَّ البيرونى تأليف كتابه « القانون المسعودى» حمله إلى السلطان الذى أراد أن يجزيه على هذا العمل العظيم ما يستحقه، فوجَّه إليه ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من نقود الفضة، فردَّها البيرونى قائلاً :

---

(١) محاضرات فى العلوم عند العرب للدكتور عبد الحليم منتصر، ص ٨١ .

« إنَّهُ إنَّما يُخْدَمُ العِلْمُ للعِلْمِ لا للمَال »[1] .

ويعدُّ الأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح ، بعض أعلام العلماء المسلمين فيقول :

« والإسلام بدعوته إلى العلم هو الذى خَرَّج رجال الحضارة ، وجهابذة العلم وأساتذة الدنيا وعمالقة العلماء ، أمثال :

ابن الهيثم ، والكندى، والفارابى ، وابن سينا ، والبيرونى ، والفرغانى ، والطوسى ، والبغدادى ، والدينورى ، والرازى ، والقزوينى، والأنطاكى ، والزهراوى ، والخوارزمى، والصدفى، وجابر،والجاحظ،وابن البيطار،وابن النفيس،وابن حيان، وابن حمزة، والإدريسى، والمسعودى، وابن بطوطة،وابن زهرة» [2] .

هؤلاء الأعلام (وكثير - غيرهم - فى كل فن) هم ثمرة هذه الدعوة الإسلامية التى بلغت - فى الإشادة بالعلم - الذروة .

* * *

---

(١) المصدر السابق .

(٢) مجلة «الرسالة الإسلامية» التى يصدرها ديوان الأوقاف بالعراق .

٨ـ أسطورة التعارض
بين الإسلام والعلم

مسألة الصلة بين الدين والعلم ـ انسجاماً واتفاقاً، أو تعارضاً ونزاعاً ـ مسألة تُثار دائماً.

ولقد كتب الغربيون كثيراً فى هذا الصدد، بل هم أول من كتب فيه، ولكن هذه المسألة تجاوزت الغرب إلى الشرق، وكتب مفكرو الشرق فيها، واختلفوا فيما بينهم كما اختلف مفكرو الغرب.

وإن ما كتبه العلاَّمة الفرنسى «إميل بوترو» ـ فى هذا الصدد ـ يعطينا صورة عن هذه المسألة فى الغرب وفى الشرق الحديث، إنه يقول:

«إن أمر العلاقات بين الدين والعلم، حين يُراقَب فى ثنايا التاريخ، يثير أشد العجب، فإنه على الرغم من تصالح الدين والعلم مرة بعد مرة، وعلى الرغم من جهود أعاظم المفكرين التى بذلوها ملحِّين فى حل هذا المشكل حلاً عقلياً لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم الكفاح، ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه، لا أن يغلبه فحسب.

على أن هذين النظامين لا يزالان قائمين، ولم يكن مجدياً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم، فقد تحرر العلم من هذا الرِّق، وكأنما انعكست الآية منذ ذاك.

وأخذ العلم ينذر بفناء الأديان، ولكن الأديان ظلت راسخة، وشهد بما فيها من قوة الحياة عنفُ الصراع»[1].

ويسترسل المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق، فيقول:

«ولسنا نريد أن نعرض لتاريخ العلاقات بين الدين والعلم على مر العصور، وما تناولها من سلم وحرب، فإن ذلك بحث طويل، وليس هو مما قصدنا إليه فى هذا الكتاب، على أنه قد يكون غير خلْو من المناسبة لغرضنا أن نذكر ما كتبه إميل بوترو عن موقف العلمَ والدين فى أيامنا هذه، إذ يقول:

ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمى والروح الدينى، فليس يعنى العالم أن يكون ما جاء فى الدين من عقائد متفقاً مع نتائج العلم، لأن الأساس الذى يعتمد عليه الدين فيما يجىء به يختلف عن الأساس الذى يعتمد عليه العلم، فالدين يقدم مسائله على أنها عقائد يجب الإيمان بها، أى: يجب أن يتقيد بها العقل والوجدان، ويعرضها فى صورة تدل على اتصال الإنسان بنوع من الأشياء يعجز علمنا الطبيعى عن إدراكه، وفى ذلك ما يجعل العالم - إن لم يرفض هذه المسائل نفسها - يرفض الأسلوب الذى يسلكه المتدين فى الأخذ بها. والمتدين من ناحيته إذا وجد جميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة، بل

(١) «الدين والوحى والإسلام» للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق.

مثبتة بالعلم يكون حينئذ أبعد شيء عن مسالمة العلم ، فإن هذه الشئون إذا شُرحت على هذا الوجه فقدت كل خواصها الدينية » اهـ .

والواقع أن كلام « إميل بوترو » الذى ترجمه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، يتحدث عن الجو الأوربى المسيحى ، وعن البيئة الأوربية المسيحية ، ومن الخطأ أن ننقل ذلك النزاع إلى البيئة الإسلامية .

أما كونه يصوِّر البيئة الأوربية المسيحية ، فإن ذلك واضح لكل مَنْ درسَ تاريخ أوربا المسيحى ، فى موضوع العلاقة بين الدين والعلم .

إن الكنيسة - فى فترة من فترات حياتها - تبنَّت آراء أرسطو ، لقد تبنتها فى الطبيعة وتبنتها فيما بعد الطبيعة ، وما كانت آراء أرسطو فى يوم من الأيام ديناً . وكان للكنيسة - فضلاً عن ذلك - آراء آمنت بها ، تتعلق بالعالم الطبيعى ، لا أساس لها من الحق ولا تستند إلى علم يقينى - ولا تمتُّ إلى العلم بصلة - وإنما هى شائعات اتخذت طريقها إلى العقائد ، وما كانت إلا أساطير .

وحينما بدأت النهضة ، وحينما بدأ تطبيق المنهج الاستقرائى «منهج التجربة والملاحظة » تبيَّن العلماء من خلال المراصد والمعامل ، ومن نتائج التجارب والملاحظات ، أن آراء أرسطو فى الطبيعة لا تخلو من خطأ ، وأخذوا يعانون هذه الأخطاء المرة بعد المرة .

وكانت الكنيسة ـ حينئذ ـ مسيطرة على أوربا، وكانت محاكم التفتيش قائمة على قدم وساق، تنكِّل بكل منحرف عن تيَّار الكنيسة.

وبدأ ـ إذن ـ التنكيل بالعلماء، يأخذ مجراه، في صورة قاسية بشعة، لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية.

ولكن العلماء لم يثنهم ذلك عن البحث والدراسة، وإعلان النتائج والإسفار عن الحقائق. فلما رأت الكنيسة ذلك زاد غيظها وزادت حدَّتها، وكان لها في كل يوم فريسة، وكان للعلم في كل يوم شهيد، وكثر شهداء العلم كثرة جعلت الناس يعتقدون أن بين الدين المسيحي والعلم تعارضاً وتضارباً واختلافاً.

والواقع أنه كان بين المذهب ـ كما تراه الكنيسة ـ والعلم، تعارض وتضارب واختلاف، ولكنك لا يمكنك أن تسمِّي المذهب الذي كانت تراه الكنيسة ـ إذ ذاك ـ ديناً.

إذن: فإنه ما كان يمكن أن تقوم فكرة «التعارض بين الدين والعلم» لو التزمت الكنيسة الدين المسيحي، كما جاء به السيد المسيح عليه السلام.

هذا من جانب، أما من الجانب الآخر: فإنه إذا كانت فكرة «التعارض بين الدين والعلم» نشأت في أوربا للأسباب التي ذكرناها، فإنه ما كان يجب أن تُنقل إلى الشرق وتُناقش في

الأجواء الإسلامية، فإن الإسلام نشأ - كما رأينا - حليفاً للعلم، حاثاً عليه، مُوجباً له، مُشيداً به، إلى درجة لا يُدانيه فيها غيره.

ومع ذلك: فإن الأمر العام الذى نريد أن ننبه عليه، هو أن مسألة التعارض بين الدين والعلم إنما هى مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر.

ذلك أن العلم وممثليه الحقيقيين يعترفون فى صراحة لا لبس فيها، وفى وضوح لا خفاء فيه؛ بأن دائرة أبحاثهم إنما هى المادة، وإنما هى المُحَسّ، وأنهم يعتمدون فى ذلك على التجربة، وعلى الملاحظة. إنهم يعتمدون على الاستقراء على وجه العموم وليس الاستقراء إلا تتبُّع جزئيات مُحَسَّة، تتبُّعها بالملاحظة، أو بإجراء التجارب عليها.

المنهج العلمى - إذن - إنما هو منهج لمعرفة كيفيات المادة، وإذا ما خرج الأمر عن دائرة المادة فقد خرج عن دائرة العلم.

وعلى هذا الأساس: فليس للعلم - مطلقاً - دخلٌ فى أمور الدين: إثباتاً وإقراراً أو نفياً وإنكاراً.

وإذا ما قال قائل: «إن العلم يُثبت كذا من الأمور الروحية».. فإنه يكفينا منه هذه الكلمة لنسحب ثقتنا به كعالم.. وإذا ما قال: «إن العلم يُنكر كذا من الأمور الروحية».. فإن هذه الكلمة تكفى أيضاً لنسحبَ ثقتنا به كعالم؛ إذ إن العلم - فى المجال الروحى - لا يُثْبِتُ ولا يَنْفِى، وهذا واضح مما سبق أن ذكرناه.

ومع ذلك فقد يتيح العلم بأبحاثه فى ارتباط الكون وتنسيقه وإبداعه، والتناغم الذى يسوده، والدقائق الباهرة التى يبينها «علم التشريح» مثلاً فى التركيب الحيوانى . .

قد يتيح العلم من كل ذلك لعلماء الدين وسائل يبنون عليها تذكيرهم، وعظاتهم ، وبيانهم القائم على أن العالم لم يكن نتيجة الصدفة العمياء ،أو الاتفاق الأصمّ ، ويبينون من نتائج العلم أن الآيات ـ فى مجال المادة نفسها ـ تشهد أنها من صنع الله الذى أتقن كل شىء :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .

إن دائرة الدين لا تتحدُّ مع دائرة العلم ، فلا يتأتَّى أن يكون بينهما تعارض . . إن العلم لا يبحث فى العقائد من حيث هى وَحْىٌ، ولا فى الخير والشر باعتبارهما حقائق أخلاقية، ولا فى التشريع من حيث ما يجب على الأمة أن تَسُنَّ من قوانين .

وهذه كلها هى المجالات التى يعلن الدين وحى السماء فيها ، واجبَاتٍ وفروضاً، أو مُبَاحاتٍ وجَائزاتٍ، أو مُحَرَّماتٍ ممنوعات .

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

وإنه لتقليد ببغاوات أن ننقل الفكرة التى نشأت فى التعارض بين الدين والعلم - من بيئتها الجزئية، ومن ظروفها الخاصة - إلى مجال الدين عامة، أو مجال الدين أينما كان، وفى أى زمان وُجد . . وإنه لمن التهريج الواضح، وسوء النيَّة المبيَّتة أن ننقل الفكرة من جو المسيحية إلى جو الإسلام الذى كانت أول كلمة فى وحيه «**اقرأ**»، والذى يصل بالعلماء إلى أن يُشْهِدَهُمُ التوحيد مع الله ومع ملائكته.

* * *

٩ـ المناهج العلمية بين الإسلام والحضارة الحديثة

لا ريب فى أن الحضارة الحديثة بدأت فى قوة جارفة ، بمنهجين فى العلم يختلفان، ويتعارضان، ويتنازعان :

أحدهما : المنهج الحِسِّىُّ التجريبىُّ، أو المنهج البيكونى .

والثانى : المنهج العقلى البَدهىُّ، أو المنهج الديكارتى ، أو المنهج الحَدْسىُّ حينما نفسر الحَدْسىَّ كما فسَّره المناطقة بأنه : انتقال الذهن إلى المطلوب بسرعة .

وكل من المنهجين نشأ معارضاً لمنهج القياس الأرسطى . وكل منهما يرى أن «القياس الأرسطى» إنما يُعنَى بالصورة والشكل ، ولا شأن له بالواقع والتطبيق ، ومن أجل ذلك سُمِّى بالمنطق الصورى ، أى : منطق الصورة ، لا الجوهر .

والمنهج البيكونى هو منهج علمى .

أما المنهج الديكارتى فإنه منهج فلسفى .

والمنهج التجريبى :

هو المنهج الذى قامت عليه الحضارة الحديثة ، ومن أجل ذلك سنقصر حديثنا عليه .

إنه منهج الاستقراء ، أى : تَتَبُّعُ الجزئيات عن طريق التجربة فيما يمكن أن يخضع للتجربة وعن طريق الملاحظة فيما لا يتأتى أن

يخضع للتجربة، للوصول إلى الحكم عليها - فى صورة من صورها - حكماً كلياً، أو بعبارة أخرى: للوصول إلى اكتشاف القوانين العامة، أو للوصول إلى معرفة نواميس الكون.

ومجال الاستقراء: إنما هو الطبيعة؛ لأنه ملاحظة جزئيات فى عالم الطبيعة، وأداته الحسّ، فهو ملاحظة محسوسات.

وعلى أساس من هذا المنهج قامت الحضارة الأوربية الحديثة بكل ما فيها من صناعة فى الطبيعة، ومن اكتشافات فى الكيمياء، ومن قوانين فلكية، ومن اختراعات فى جميع المجالات المادية والحسية.

وعلى أسس من هذا المنهج - أيضاً - ستتطور هذه الحضارة، وترقى وتتسع - كَمّاً وكيفاً - إلى ما شاء الله.

وهذا المنهج، فى المشهور المتعارف، يَدينُ - فى وجوده - إلى «فرانسيس بيكون» ولكنه عند الدارسين لتاريخ الفكر الأوربى، يدين لـ «روجر بيكون» أكثر مما يدين لغيره. والملاحظون الدارسون للعلوم يرون أن روجر بيكون كان أدق وأعمق فى بيان المنهج وفى تطبيقه، بيد أن روجر بيكون - على خلاف كثير من مواطنيه - يعترف فى صراحة لا لبس فيها، وفى وضوح لا شائبة فيه، أنه مَدينٌ فى منهجه للعرب وللحضارة العربية.

هذه «الحقيقة» التى حاول الغربيون - جاهدين - أن ينكروها ويخفوها - فيما مضى - يعلنها الآن بعض المُنصفين منهم، فها هو

ذا الأستاذ «بريفولت» يتحدث في كتابه « بناء الإنسانية » عن أصول الحضارة الغربية فيقول :

« إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلوم العربية - في مدرسة أكسفورد - على خلفاء معلِّميه العرب في الأندلس.

وليس لروجر بيكون، ولا لسَمِيِّه الذى جاء بعده، الحق في أن يُنسب إليهما الفضل في ابتكار (المنهج التجريبى) ، فلم يكن (روجر بيكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يملّ قَطُّ من التصريح: بأن تعلُّم معاصريه اللغة العربية ، وعلوم العرب : هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقَّة.

والمناقشات التى دارت حول (واضعى المنهج التجريبى) هى طرف من (التحريف الهائل) لأصول الحضارة الأوربية.

وقد كان (منهج العرب التجريبى) - في عصر بيكون - قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكبَّ الناس في لهفٍ على تحصيله في ربوع أوربا » .

ويقول « بريفولت » أيضاً :

« لقد كان (العلم) أهم ما جادت به (الحضارة العربية) على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التى ولَّدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضىٍّ وقت طويل على اختفاء تلك (الحضارة) وراء سُحب الظلام.

ولم يكن (العلم العربى) ـ وحده ـ هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثِّرات أخرى كثيرةً من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية » .

ويقول بريفولت أيضاً :

« إن ما يدين به علمنا لعلم العرب : ليس فيما قدَّموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا (العلم) للثقافة العربية بأكثر من هذا.. إنه يدين لها بوجوده نفسه ، فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجود.

و(علم النجوم) عند اليونان ، ورياضياتهم ، كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم ـ فى يوم من الأيام ـ فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية.

وقد نظَّم أهل اليونان المذاهب ، وعَمَّموا الأحكام ، ووضعوا النظريات .. ولكن أساليب البحث ـ فى دأب وأناة ـ وجمع المعلومات الإيجابية ، وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريباً ـ تماماً ـ عن المزاج اليونانى ، ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدها الهلِّينى .. أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، ولطرق (التجربة ، والملاحظة ، والمقاييس)، ولتطور الرياضيات إلى

صورة لم يعرفها أهل اليونان . وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » .

ويقول الدكتور محمد إقبال ما نَصُّه :

« ومن أين استقى روجر بيكون ما حَصَّله فى العلوم من الجامعات الإسلامية فى الأندلس . والقسم الخامس من كتابه «Lepus Majus» الذى خصَّصه للبحث فى (البصريات) هو ـ فى حقيقة الأمر ـ نسخة من كتاب «المناظر» لابن الهيثم . وكتاب روجر بيكون ـ فى جملته ـ شاهد ناطق على تأثره بابن حزم» .

هذه الحقائق التى قدمناها عن حضارة العرب ـ منهجاً وعلماً ـ أصبحت من الذيوع والشهرة لدى المنصفين ، بحيث لا تحتاج إلى التوسع فى الاستدلال عليها .

أخذت أوربا المنهج العلمى المادى عن الإسلام باعتراف واضع هذا المنهج نفسه ، وباعتراف المنصفين من المؤرخين ، وليس بعد اعتراف واضع المنهج نفسه مقالٌ لقائل . .

ومع ذلك : فإن المنهج الإسلامى أكمل وأتمّ ، وأشمل ، وقد أخذته أوربا ناقصاً .

إن المنهج التجريبى يقف عند الطبيعة ، وهو منهج إسلامى ، ولكنه ليس بالمنهج الإسلامى الكامل ، فالمسلم لا ينتهى إلى «الطبيعة» كغاية ، ولا يقتصر عليها كهدف . . وإنما غايته وهدفه

هو ما عبَّر عنه اللَّه سبحانه بقوله : ﴿ **وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ** ﴾[1] .

وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادى ، فإن الإسلام لا يقف عند ذلك وإنما يوجِّه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة : هو القلب ، أو هو الروح ، أو هو البصيرة .

إن الإسلام يوجِّه الإنسانية إلى « المعرفة الإشراقية » ، أو الكشفية ، أو الإلهامية . ويجمع الإسلام الاتجاه العلمى الحديث إلى الاتجاه البصيرى ؛ فى قوله تعالى :

﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا** ﴾[2] .

فالسمع والبصر : هما أساس العلم المادى ، علم التجربة والملاحظة ، أما القلب : فإنه أساس العلم الإلهامى .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوجِّه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجِّهه أيضاً إلى الاستشراف للهداية والنور القلبى عن طريق الخُلق الكريم والتقوى والإخلاص وحب الإنسانية والمعاونة فى الخير .

وإذا كان الإسلام أوسع نظرةً فى الجانب العلمى عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل ، فإنه يختلف معها اختلافاً جذرياً حاسماً فى مسألة الإرادات والنوايا وفى أمر الأسباب والبواعث واتجاه الغايات والأهداف .

إن الحضارة الحديثة تقول : « العلم لا صلة له بالأخلاق » ، أو

---

(١) سورة النجم : ٤٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٣٦ .

تقول : « العلم لا أخلاقى » . والعلم ـ فى نظرها ـ لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الإسلام يجعل أسس العلم مُتَّسِمةً بالخير ، ويجعل غاياته منغمسة فى الخير ، ويجعل من العلم قُربَى إلى الله ، ويجعل منه عبادة لله ، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم . . إن العلم فى الجو الإسلامى «**قراءة باسم الله** » .

* * *

١٠- إجمال فى موقف
الإسلام من العلم

والآن نحب - بتوفيق الله تعالى - أن نذكر نتائج بحثنا فى كلمات موجزة :

١- العلم فى الإسلام شَطْرُ الغاية التى من أجلها نزلت الرسالة ، وذلك أن مهمة الرسول ﷺ - كما حددها القرآن - التعليم ، والتزكية :

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[١] .

٢- نشأ الإسلام حليفاً للعلم ، منذ أن ابتدأ الوحى بقوله تعالى : ﴿اقْرَأْ﴾[٢] .

٣- الإشادة بالعلم فى القرآن والسُّنَّة لا يماثلها - فى سُمُوِّها وجلالها - إشادة فى الآداب العالمية .

٤- العلم الذى يدعو إليه القرآن الكريم ، والسُّنَّة النبوية الشريفة : هو العلم بكل نافع فى مجال الكون ، وفى مجال ما وراء الكون ؛ فى مجال العقائد ، وفى مجال الأخلاق ، وفى مجال الطبيعة .

٥- المنهج العلمى الأوربى الحديث ، منهج أخذته أوربا عن الإسلام باعتراف الواضع الحقيقى للمنهج وهو «روجر بيكون» .

---

(١) سورة البقرة : ١٢٩ .   (٢) سورة العلق : ١ .

٦ـ لا تعارض بين الدين والعلم، لأن دائرة الدين «الإيمان»، ودائرة العلم «المادة»، وإن الأمل لكبيرٌ فى أن تستجيب الأمم الإسلامية لدعوة الله ورسوله، فتجعل من العلم أساساً لنهضتها وشعاراً لها فى قيامها برسالتها.

والله الموفِّق الْمُيَسِّر، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه، ومن اتَّبع هديه إلى يوم الدين.

* * *

١١ـ والواقع أن العلم فى الدائرة الصوفية هو العلم بمعناه الإسلامى أى: العلم بالطبيعة والعلم بما وراء الطبيعة

إن كثيراً من الناس، فى عصرنا الراهن، يحاولون ـ ما استطاعوا ـ أن يقللوا من اهتمام الصوفية بالنسبة للعلم، وربما وجدوا سنداً فى بعض الأوضاع التى لم تأخذ شكلها الصادق فى عصرنا الراهن.

وبعض الأجواء التى تنتسب إلى التصوف قد تعطى شيئاً من المنطق المزيف لأعداء التصوف، ليحاولوا التقليل من شأن الاهتمام العلمى عند الصوفية

والواقع أن العلم فى الدائرة الصوفية هو العلم بمعناه الإسلامى أى: العلم بالطبيعة، والعلم بما وراء الطبيعة: إنه العلم بالأخلاق وبالفضيلة، وهو العلم بالنواميس الإلهية السارية فى الكون والتى يكتشفها علم التشريح أو علم الطبيعة، أو علم الفلك، أو غير ذلك.

وإذا كانت الحقيقة تُسْفِرُ عن قناعها بالأمثلة، فإنَّا نبدأ بمن قال عنه القشيرى:

« **سيِّد هذه الطائفة وإمامهم** ».

إنه « **الجُنَيد** ». لقد كان فقيهاً يفتى فى حلقة أستاذه، وبحضرته، وهو ابن عشرين سنة. وتأمَّلْ ما قاله القدماء عن درسه:

لقد كان الكَتَبة (الأدباء) يحضرون مجلسه؛ لألفاظه.

وكان الفقهاء يحضرون مجلسه؛ لتقريره.

والفلاسفة يحضرون مجلسه؛ لدقة نظره ومعانيه.

أما المتكلمون فكانوا يحضرون مجلسه؛ لتحقُّقه.

وكان الصوفية - من قبل هؤلاء ومن بعدهم - يحضرون مجلسه لإشاراته وحقائقه.

ولقد حضر أبو الحسن على بن إبراهيم الحدَّاد يوماً مجلس القاضى أبى العباس بن شريح فسمعه يتكلم فى الفروع والأصول (أى: فى علم الفقه، وفى علم التوحيد) بكلام حسن.

يقول أبو الحسن: فعجبت منه، فلما رأى إعجابى قال: أتدرى من أين هذا؟..

قلت: يقول به القاضى.

فقال: هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد.

أما علْم الجنيد نفسه، فقد جاهد فى سبيل تحصيله السنين الطوال عَن طريق الدرس والتحصيل، وكان هذا الطريق الجانب الكَسْبىّ من علمه.

أماَ الجانب الوَهْبىّ، فإنه سُئل: من أين استفدت هذا العلم؟

فقال: من جلَوسى - بين يدى الله - ثلاثين سنة، تحت تلك الدرجة.. (وأومأ إلى درجة فى داره).

وقد حفظ الجنيد القرآن، وفهمه، ودرسه، وتدبَّره، وقيَّد الحديث، واستوعبه - قدر الاستطاعة - لفظاً ومعنى، رواية ودراية.

وذلك أنه يرى - كما يرى غيره من الصوفية - أن ذلك هو الأساس، ولابد من إحكام الأساس.

وإحكام هذا الأساس يجعل مَنْ أَحْكَمَهُ فقيهاً، ويجعله محدِّثاً، ويجعله مفسِّراً، ويجعله من علماء التوحيد.

ولقد أحكمَ الجنيد هذا الأساس قدر الاستطاعة:

أحكمه تَعبُّداً، وأحكمه استنارة، وأحكمه لأنه صوفيٌّ، وقال فيما رواه القشيرى:

« مَنْ لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث: لا يُقتدَى به فى هذا الشأن، لأن علمنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسُّنَّة ».

ولقد كرَّر الجنيد ﷺ هذا المعنى؛ حتى يثبت فى أذهان الصوفية.

يروى الروزبارى عن الجنيد أنه قال:

« مَذْهَبُنَا هذا مُقَيَّدٌ بأصول الكتاب والسُّنَّة ».

ويروى القشيرى أيضاً عن الجنيد أنه قال:

« عِلْمُنَا هذا مُشَيَّدٌ بحديث رسول الله ﷺ ».

ويكفى أن يتصفح الإنسان رسائل الجنيد ﷺ ليشعر أنه أمام عالم من أئمة علماء المسلمين .

والجنيد ﷺ مثالٌ للصوفيِّ على ما ينبغى أن يكون ، ولم يكن الجنيد بدعاً فى عالم الصوفية ، فأستاذه الحارث بن أسد المحاسبى لم يكن فى زمانه نظير له فى علمه . .

ومؤلفاته كثيرة متنوعة ، وكلها فى مستوًى سَامٍ . . حتى أضحت من المصادر الرئيسية التى أفادت الإمام الغزالى وأثَّرت فيه .

وكتاب « الرعاية » للمحاسبى ، كتابُ أديب ، عالم حُجَّة ، وكتابه «فهم القرآن» بحسب ما وصلنا منه من نَصوصٍ - كتابُ الباحث الدقيق ، الذى يتخذ القرآن والسُّنَّة أساساً ، وينطلق منهما إلى إضاءة جوِّ العقائد ردّاً على المبتدعة والمنحرفين .

ولقد حاول ذو النون المصرى - من قبل الجنيد - أن يكتشف من مُعمَّيات الكون ما خفى على الكثيرين : لقد كانت له جولات فى عالم الكيمياء ، وأسرار الطبيعة ، ولقد حاول أن يكتشف أسرار علم قدماء المصريين ، وأن يقرأ كتاباتهم ، ويتفهم لغتهم . لقد كان يحب اكتناه الغامض ، ويحاول أن يزيل القناع عن المحجوب ، فضلاً عن شعاره الدائم ، وهو القرآن الكريم ، وسُنَّة رسول رب العالمين .

وهل أتاك نبأ الإمام القشيرى ، وأنه فسَّر القرآن ، كما يفسره هذا وذاك من علماء اللغة ، وعلماء أسباب النزول ، وعلماء

النحو والبلاغة ، وغيرهم ، ولم يكن أقل من أيٍّ منهم في علمهم وفنِّهم .

إنه لم يكتف بذلك ، وإنما أَلَّفَ في تفسير القرآن : « لطائف الإشارات » فكان إلهاماً من الإلهامات ، وكان نوراً من الأنوار ، ولم يذكر فيه كل الإشارات ، وإنما ذكر لطائفها .

ولقد خاض الإمام الغزالي بحار العلم ، وانغمس فيها ، ويعبِّر عن ذلك بقوله :

« ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السنُّ على الخمسين : أقتحم لُجَّة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجَسُور، لا خوضَ الجبان الحَذُور، أتوغل في كل مُظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحَّم كل ورطة ، وأتفحَّص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين مُحقٍّ ومُبطِل، ومُتسنِّنٍ ومُبْدِع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطَّلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته..

.. ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كُنْه فلسفته.

.. ولا متكلِّماً إلا وأجتهد في الاطِّلاع على غاية كلامه ومجادلته.

.. ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سرِّ صوفيَّته.

.. ولا متعبداً إلا وأترصَّد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

.. ولا زنديقاً معطِّلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دَأْبى ودَيْدَنى، من أول أمرى، وريعان عمرى، غريزة وفطرة من الله، وُضعتا فى جِبلَّتى لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلَّت عنى رابطة التقليد، وانكسرت علىَّ العقائد الموروثة، على قُرب عهد سِنِّ الصِّبا » .

أما الذى طوَّع مختلف العلوم، وامتلك ناصية المعرفة على مختلف فروعها، ووصل فيها إلى القمة: لم يُجَارِهِ فى ذلك فيلسوفٌ من فلاسفة الشرق، ولم يُجارِهِ فى ذلك فيلسوف من فلاسفة الغرب . . فإنه :

الشيخ الأكبر ، سيدنا محيى الدين بن عربى .

لقد طوَّع المعرفة لفكره، وطوَّعها لقلمه، وبلغ فيها القمة، وبحقّ سُمِّى الشيخ الأكبر، ولقد كان فى فتوحاته مفسِّراً خيراً من كثير من المفسِّرين، وفقيهاً خيراً من كثير من الفقهاء، وشارحاً للحديث خيراً من كثير من شُرَّاحه ، وفتوحاته كنز من المعرفة لا ينفد، ومَعِينٌ من العلم لا ينضب . . إنه رشفة من بحار رسول الله ﷺ تَتَّسِمُ دائماً بنضرة منبعها .

والصوفية فى الجانب العلمى لا يكتفون بالجانب الكَسْبى ،

أى : جانب التعلُّم من الكتب ، وعلى أساتذة الكتب ، ولكنهم قرأوا فى كتاب الله تعالى :

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1] .

فتعلَّقت آمالهم بهذا العلم الآتى مباشرة من الله . وتطلَّعت أمانيهم إلى هذا العلم الذى هو من عند الله ، واتخذوا الطريق إليه .

والطريق إليه رسمه الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ ، إنه الجهاد فى سبيل الله :

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2] .

وهو العمل بما علموا :

«مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ؛ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» .

وهو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى ، ومن حَقَّق العبودية لله كان الله سمعه وبصره :

« كنتُ سَمْعَهُ الذى يَسْمَعُ به ، وبَصَرَهُ الذى يُبْصِرُ به » .

وشعار الصوفية على وجه العموم فيما يتعلق بالعلم ، هو شعار أستاذهم وقدوتهم وحبيبهم رسول الله ﷺ الذى كان شعاره :

﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[3] .

---

(١) سورة الكهف : ٦٥ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

(٣) سورة طه : ١١٤ .

وإذا كان أهل الظاهر قد فرحوا بعلمهم الظاهر، واكتفوا به، فإن الصوفية قد حَصَّلوا هذا العلم ولكنهم لم يكتفوا به، لقد شاركوا علماء الظاهر فى علمهم، ولكن علماء الظاهر لم يشاركوهم إلهاماتهم وإشراقاتهم..

هل نذكر فى هذا المجال الإمام الغزالى فى علمه الظاهر، وفى علمه الباطن؟

هل نذكر القطب الكبير أبا الحسن الشاذلى، أو القطب الكبير أحمد الرفاعى، أو القطب الكبير عبد القادر الجيلانى، فى علمهم الظاهر، وفى علمهم الباطن؟

والشعرانى الذى ساهم تقريباً فى جميع فروع المعرفة الدينية، أننساه فى هذا المجال؟..

- إن «التصوف» و«العلم» يؤلِّفان وحدةً مُتَّحِدةً منذ أن نشأ التصوف.

* * *

موقف الإسلام
من الحضارة الحديثة

- الآراء المختلفة .
- الشطر الأول من الحضارة .
- الشطر الثانى من الحضارة .
- ما يتعلق بالتشريع .

١ـ الآراء المختلفة

*** ما موقف المسلم من الحضارة الحديثة ؟.**

*** ما موقف علماء الإسلام من الحضارة الحديثة ؟.**

تتعدد الآراء فى ذلك : فهناك آراء هؤلاء الذين يرون أن نأخذ الحضارة الحديثة كاملة، دون نقص، تقريباً . .

ومنذ عهد ـ ليس ببعيد ـ وقف أحد كبار المستشرقين فى ندوة جمعت بين كبار رجال الفكر وكبار رجال الدين، وأعلن : لِمَ نتنكَّر للحضارة الحديثة وقد ركبنا منها الطائرات واستعملنا فوائدها فى كثير من الأجواء، وفى كثير من الحالات، فَلِمَ نتنكَّر لها فى غير ذلك ؟ . .

يجب علينا ـ عرفاناً بالجميل ـ أن نأخذ الحضارة الحديثة ككُلٍّ . نأخذها بما لها وما عليها .

وليس هذا رأى هذا المفكر وحده وإنما هو رأى طائفة كبيرة فى الشرق تدعو إلى أخذ الحضارة الحديثة ككلٍّ دون استثناء شيء منها .

إن الحضارة الحديثة ـ فى رأيهم ـ حضارة متكاملة : مادةً ومعنًى، شكلاً وجوهراً، فلنأخذها ككُلٍّ .

ويعارض ـ هؤلاء ـ كثيرون يرفضون الحضارة الحديثة جملةً، وهذا الرفض قد يكون كثيراً فى الأفراد، بيد أن بعض الدول

تبنَّته أيضاً ؛ حاولت بعض الدول فى الماضى أن ترفض الحضارة الحديثة كليةً، وأن تغلق فى وجهها الأبواب . . ولم تُوَفَّق الدول ولم يُوفَّق الأفراد أيضاً، فيما يتعلَّق بهذه المحاولة .

والرأى الثالث: يرى أن علينا أن نأخذ الحضارة المادية ، أما الحضارة النظرية فإننا نأخذ منها الصالح، ونترك منها غير الصالح .

وهذا الرأى يبدو أنه رأى الأغلبية .

هذه هى مجموعة الآراء فيما يتعلق بالموضوع ، بل هى مجموعة الاحتمالات العقلية فى ذلك .

ومع هذا فإننى ـ أنا شخصياً ـ لم أرْتَضِ ـ بعدُ ـ رأياً . .

أما فيما يتعلق بأخذ الحضارة كلاً لا يتجزأ فأظن أن المسألة فى الجو الإيمانى وفى الجو الإسلامى السليم لا تحتاج إلى مناقشة كثيرة .

هذه الحضارة الأوربية فيها الكثير مما يخالف المبادئ الإيمانية والمبادئ الإسلامية . . فلا يتأتى أن يسود رأى كهذا فى الجو الإسلامى .

أما فيما يتعلق برفضها ككلٍّ فإن هذا ـ واقعياً ـ لم يتحقق لا فى الأفراد، ولا فى الجماعات، ولا فى الدول، ولا فى الأقطار، أيّاً كانت .

ليس هناك قُطْرٌ لم يَسْتَفِدْ من الحضارة الحديثة، وليس هناك إنسان لم يستفد من الحَضارة الحديثة: الإنسان، والقُطر، والأقطار . . . بل إن بنى آدم كلهم قد استفادوا من هذه الحضارة الحديثة، فلا يتأتَّى - قَطُّ - أن يسود الرأى برفض الحضارة الحديثة كليةً . . وهذه الفكرة لم تتحقق فى الواقع .

ويأتى **الرأى الوسط**، الرأى الوسط الذى ساد ويسود فى كثير من الأوساط، والذى يبدو لكثير من الناس أنه الرأى الصحيح، نأخذ من الحضارة الحديثة الصالح، ونترك من الحضارة الحديثة الضار والفاسد .

وبكلمات بسيطة يمكننا أن نرى أن هذا الرأى فاسد أيضاً، إذ يعتمد على الفكر، على العقل، على الإنسان . . دون ملاحظة للدين . إذا قلنا بأخذ الصالح، فما هو الصالح ؟ . . وفى رأى مَنْ؟ . .

إن الصالح يختلف من إنسان إلى آخر . .

إذا قلت مثلاً : **٦٪ فائدة فى البنوك**، ثم تساءلت : **أهذا صالح أم غير صالح ؟..**

يقول لك كثير من الناس بحسب عقولهم وأفكارهم وآرائهم، يقولون لك إنه لا بأس بستة فى المائة فائدة فى البنوك . . ويرفض ذلك آخرون .

فهل ٦٪ فائدة فى البنوك: صالح أخذها أم ليس بصالح ؟..

يختلف الناس . .

ونأتى إلى مسائل أخرى متحدثين بأسلوب العقل لا بأسلوب الدين . . ونقول :

ـ شُرْب قليل من الخمر : هل هو صالح أم ليس بصالح ؟..

وستجد ـ لا محالة ـ من يقول إنه لا بأس بشرب قليل من الخمر .

ـ والاستحمام على الشواطئ . . هل هو صالح أم ليس بصالح ؟..

ـ هل نأخذه من الحضارة الغربية أم لا نأخذه من الحضارة الغربية ؟..

ستجد أيضاً أصحاب الأهواء الشيطانية ، وأصحاب الآراء الجنسية يقولون لك إن هذا صالح ؛ فالجسم صحته تتوافر فى ضوء الشمس ، ويستفيد من الفيتامينات التى فى إشعاع ضوئها !! . .

هذه القضايا ـ وكثير غيرها مما لا يقرُّها الدين ـ ستجد لها أتباعاً يقرُّونها ، من هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم ، وستجد من يقول إن ذلك صالح .

إذا أخذنا الناحية الصالحة فى الحضارة الحديثة ورفضنا الناحية غير الصالحة : فإن الرأى لا يستقيم ، لأن الناس يختلفون فيه

اختلافاً كبيراً، ولا يتأتّى ـ مطلقاً ـ التحديد : تحديد الصالح وتحديد غير الصالح، لا يتأتى الاتفاق على التحديد ما دمنا فى مجال العقل فحسب، ما دامت المسألة آخذة وضعها العقلى الفكرى فقط .

*** ما المَخْرَج ـ إذن ـ من هذا ؟..**

*** ما هو ـ إذن ـ موقفنا من « الحضارة الحديثة » إذا كنا لا نقبلها ولا نرفضها ولا نقبل التوسط فيها ؟..**

وأريد أن آخذ الآن فى إبداء رأيى الشخصى ، فيما يتعلق بالموضوع، ونحن فيما يتعلق بمجال الحضارة الحديثة نرى كما يرى غيرنا، والآراء فى ذلك لا تختلف ـ تقريباً ـ فى أن **الحضارة الحديثة تنقسم إلى قسمين: المادى، والثقافى..**

* * *

٢ـ عن الشطر الأول
من الحضارة: الشَّطر المادى

القسم المادى: قسم المعامل، والمصانع، قسم الطب، قسم الكيمياء، قسم الطبيعة . . هذه الناحية المادية البَحْتَة التى تتأتَّى عن طريق الملاحظة والتى تحكمها التجربة . .

هذه الناحية المادية من الحضارة الحديثة لا يتأتى لنا ـ قَطُّ ـ أن نقول إن أوربا ابتدعتها ابتداعاً، أو اخترعتها اختراعاً . .

وهذه الناحية نفسها ـ الناحية المادية ـ لها جانبان : **جانب المنهج ، وجانب الموضوع .**

أما فيما يتعلق بجانب المنهج فإنه **منهج الاستقراء**، وهو منهج تَتَبُّع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية .

هذا **المنهج الاستقرائى** ـ أو المنهج العلمى ، أو منهج السمع والبصر ، أى : **منهج الملاحظة** ـ هو **المنهج الإسلامى** . . لقد سار عليه النبى ﷺ ، وسار عليه المسلمون قبل أن تنشأ الحضارة الأوربية :

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(١) .

السمع والبصر هما أسَاسَا الملاحظة والتجربة ، أو عنهما تنشأ الملاحظة والتجربة .

---

(١) سورة الإسراء: ٣٦ .

عدم اتِّباع الظن، والسير وراء الملاحظة ووراء التجربة . . هذا منهج الإسلام ، اتخذه المسلمون منذ زمن بعيد ، وقد اعترف الغربيون أنفسهم بأن « الإسلام» هو الذى بدأ بوضع «المنهج التجريبى » ، واعترفوا بأن روجر بيكون ، الذى يعتبر فى أوربا المؤسِّس الأول للمنهج التجريبى ، اعترفوا بأنه أخذه عن العرب ، وبأنه لم يكن إلا تلميذاً من تلاميذ العرب ، لم يكن إلا طالباً فى مدرسة العرب ، اعترفوا بهذا صراحة . .

يقول أحد كُتَّابهم فيما يتعلق بالمنهج الخاص بالتجربة ، بمنهج الملاحظة الذى بُنيت عليه الحضارة المادية الحديثة ، وهو الأستاذ «بريفولت» فى كتابه « بناء الإنسانية » :

« ليس لروجر بيكون ـ ولا لفرانسيس بيكون الذى جاء من بعده ـ الحق فى أن يُنسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن (روجر بيكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو نفسه لم يملّ ـ قَطُّ ـ من التصريح بأن تعلُّم معاصريه ـ فى أوربا ـ اللغة العربية وعلوم العرب؛ هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقَّة » . .

ويقول فى مكان آخر من كتابه :

« ولقد كان (العلم) أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث » . .

ويقول أيضاً :

« ولم يكن (العلم العربى) وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة .. بل إن مؤثرات كثيرة من الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية ».

ويستفيض المؤلف فيما يتعلق بما للعرب - وبما للمنهج العربى - من أثر فيما يتعلق بالحضارة الحديثة . .

لا أريد أن أطيل فى قراءة نصوصه ، وهى كثيرة ، كلها تثبت أن هذا المنهج التجريبى إنما هو المنهج الذى قامت عليه الحضارة العربية ، وأن أوربا إنما أخذته من العرب ، ولم تبتدعه ابتداعاً ، ولم تكتشفه اكتشافاً .

هذا فيما يتعلق بالمنهج . . أما فيما يتعلق بالموضوع ، فإن المؤلف الذى ألَّف هذا الكتاب والذى تحدثنا عن بعض آرائه يقول فى صراحة لا لبس فيها :

« موضوعاته ، إنه ليس مديناً فى المنهج فحسب ، وإنما فى الموضوعات أيضاً » . .

ومما هو معروف أنه كان فى الحضارة الإسلامية أفذاذ فيما يتعلق بالعلم الطبيعى . . كان هناك «**ابن الهيثم**» وكتابه فى البصريات وفى الأضواء . .

ويرى كثير من المؤرخين للحضارة الأوربية أن كتاب بيكون نفسه فى الحرارة والضوء ما هو إلا نسخة من كتاب ابن الهيثم فى البصريات . .

كان عندنا ابن الهيثم . . وكان عندنا **الرازى وابن سينا** فى الطب، وكان عندنا **جابر بن حيان** فيما يتعلق بالكيمياء ، وكان عندنا **الكندى** فيما يتعلق بالرياضيات . .

كان عندنا كل هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين تعترف لهم أوربا بالتفوق -حتى الآن- فيما يتعلق بمنهجهم التجريبى القائم على الملاحظة وعلى التجربة .

وفيما يتعلق بالموضوعات التى تطرَّقوا إليها واستنتجوا منها النتائج التى لا تزال لها قيمتها حتى الآن .

هذا الموضوع - موضوع الطبيعة - إذا أردنا التعبير الإسلامى عنه، إنه على حد الكلمة التى أطلقها الشيخ محمد عبده، وهى الكلمة التى تعبِّر التعبير الصحيح الإسلامى : **سُنَنُ اللَّهِ الكونيَّة.**

فالطبيعة، وقوانينها، واكتشافاتها، وموضوعاتها ، يكون البحث فيها إنما هو البحث فى سنن الله الكونية ؛ واكتشاف قوانينها إنما هو اكتشاف لسنن الله الكونية .

هذا «الجانب المادى» من الحضارة، إنه جانب إسلامى فى موضوعه، جانب إسلامى فى منهجه .

إنه - منهجاً وموضوعاً - ناحية إسلامية .

على أن الإسلام قد حَثَّنا على كشف سُنَّة الطبيعة . .

إن الله سبحانه وتعالى يمنُّ علينا فى القرآن بأنه سَخَّر لنا البحار والأنهار، وسَخَّر لنا الأرض، وسَخَّر لنا السماء، وسَخَّر لنا

الكواكب، وسَخَّر لنا القمر، وسَخَّر لنا الشمس، وسخَّر لنا الكون كله . .

لقد سخَّره لَلإنسان وهو بهذا الامتنان يطلب من الإنسان أن يجوب الفضاء ، وأن يغوص فى الماء ، وأن يخترق كل المُعمَّيات فى هذا الكون حتى يتسنَّى له الإيمان والإقرار - فى خضوع، وفى خشوع - بعظمة الله العظيمة ولهيمنته هذه التى لا يندُّ عنها شىء فى هذا العالم المسخَّر.

تتبُّع آيات الله سبحانه فى الأنفس وفى الآفاق، كل هذا دعوة إسلامية . . وتتبُّع آيات الله ، والتسخير ؛ لا يتأتى إلا عن طريق الملاحظة وعن طريق التجربة ، المنهج التجريبى ، المنهج الحديث ، هذا هو منهج الإسلام . .

ويدعونا الإسلام أيضاً إلى أن نكون فى هذا الجانب المادى أقوى ما نكون :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1] .

والاستطاعة لا تكاد تُحَدُّ، وكلما وصل الإنسان إلى حد من الاستطاعة تفتحت أمامه آفاق استطاعات جديدة يجب عليه أن يَلجَها، فهو فى كل آونة مُتَرَقٍّ فى عالم الطبيعة، وهو فى كل آونة مَتتبِّعٌ لهذه القوانين ؛ مُتَرَقٍّ فيها ، حتى يظل دائماً فى القمة، حتى يكون مركزه - دائماً وباستمرار - فى القمة من القوة المادية .

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

وإذا كان المسلمون قد تأخروا فى هذا الجانب فليس ذلك ذنب القرآن ، ولا ذنب الإسلام ، وإنما هو ذنب تكاسلهم وخمولهم .

وهم بهذا التأخير آثمون إسلامياً، إنهم آثمون فى نظر الإسلام وفى نظر القرآن الكريم، فهم أصحاب دعوة ، والقرآن أعدَّهم - من قديم - لهذه الدعوة .

هم أصحاب رسالة، وأصحاب الرسالات إن لم تكن عندهم القوة القوية، إن لم يكن عندهم السلطان المسيطر، إن لم تكن عندهم السيطرة المتحكمة من أجل الخير، ومن أجل العدل، ومن أجل الحق . . إن لم يكن عندهم هذا فإن رسالتهم تستمر حبراً على ورق . .

ولم يُرد الإسلام أن تكون الرسالة الإسلامية ، أو أن تستمر الرسالة الإسلامية حبراً على ورق . .

فالإسلام يدعو المسلمين إلى أن يكونوا أقوى دولة فى العالم، فإذا ما ضعفوا كانوا آثمين (فى نظر الإسلام) . . كانوا آثمين، وكانوا مقصِّرين فى حق رسالتهم التى كلَّفهم الله سبحانه وتعالى بها .

إنها آخر الرسالات . . إنها الرسالة الأبدية . . إنها الرسالة الدائمة، ولابد من قوة دائمة فى هذا العالم تسندها . . . وإذا لم

تكن هذه القوة فلن يكون لهذه الرسالة - من التأثير ومن النفوذ - ما يريده الإسلام منها ومن أصحابها .

الجانب المادى - إذن - جانب الإسلام ، وما علينا إلا متابعة الإسلام فى هذا الطريق بكل وسيلة ممكنة ، وبكل طريقة تتيسَّر .

ولا يقال - إذن - حينما نسير فى الحضارة المادية مكتشفين ومخترعين ، ومتبنِّين الاكتشافات والاختراعات - إننا أخذنا عن الحضارة الأوربية ، وإنما يقال : إننا تَابَعْنَا الخطوات التى تابعها وسار فيها أسلافُنا . . وإذا كنا فى هذا المجال نستعين بهذا أو ذاك . . فإن هذه الاستعانة ليس معناها أخذٌ من حضارة ، لأن هذا الجانب لا لون له ، أى أن الرقىَّ المادىَّ لا لون له .

لا يقال : هذه الكيمياء ألمانية ، أو فرنسية ، أو إنجليزية . .

وإنما هى الكيمياء ، أينما كانت ، وأينما وُجدت ، لا تتسم بلون . .

فإذا استعنَّا - بهذا أو بذاك - فى سبيل متابعة أسلافنا فيما يتعلق بهذا المجال فلسنا بتابعين ، وإنما نحن نواصل هذه المجهودات التى بدأها أسلافنا ، وانقطعنا عنها فترة ، ونريد أن نعود إليها من جديد.

* * *

٣ـ الشطر الثانى
من الحضارة: الشَّطر الثقافى

ويأتى بعد ذلك القسم الآخر من أقسام الحضارة الأوربية وهو القسم الثقافى . .

وهذا القسم الثقافى نبتدئ فيه بشىء من تاريخ الإسلام نفسه ، أو ببعض الحوادث التى حدثت فى ربوع الإسلام :

فمن أول هذه الحوادث التى نلاحظها : ما رواه الحافظ « أبو يعلى» من أن الرسول ﷺ رأى مرةً ورقةً فى يد سيدنا عمر ، فقال له : « **ما هذه الورقة؟** » .

فقال سيدنا عمر : إنها من التوراة . وغضب الرسول ﷺ ، وقال :

« **لَوْ كانَ مُوسَى حَيّاً ما وَسِعَهُ إلا اتِّبَاعِي** » .

تعبير صادق : ما حَلَّ له إلا اتباعه .

ونسير مع التاريخ ، فنرى سيدنا عمر بن عبد العزيز يرى أن حاجة المسلمين إلى الطب حاجة ماسَّة لكنه أخذ يتحدث إلى نفسه :

ـ هل ذلك مُباح ؟ . .

ـ هل من المباح أن يُترجِمَ كتاباً مِن كتب الطب ؟ . .

ـ هل يجوز له أن يفعل ذلك ؟ . .

ـ هل يجوز له أن يعمل عملاً لم يعمله رسول الله ﷺ ؟ . .

ويستخير الله فى ذلك ، وينتهى به الأمر إلى أن يترجم كتاب الطب ، ولم يَرَ بأساً فى ذلك . .

وكتاب الطب : كتاب من كتب الحضارة المادية ، أو كتاب من الكتب ذات الطابع المادى ، ولا بأس أن يُترجَم كتاب من هذا النسق ، أو أن يتابع ، أو أن يقتبس منه ، أو أن يؤخذ فى الجو الإسلامى من مبادئه .

وتسير الحياة بالمسلمين هادئة فى جوانبها الحضارية إلى أن يأتى العصر العباسى وتبدأ الترجمة .

والترجمة لم يعترض عليها معترضٌ ؛ فيما يتعلق بجانب الطب ، وبجانب الطبيعة ، أو بجانب الكيمياء . .

ولكن المسلمين ـ فى أول العهد العباسى ـ كانوا نافرين كل النفور من أن تترجم كتب ما وراء الطبيعة اليونانية ، فإن ما وراء الطبيعة تعنى الأبحاث التى تتصل بالعقيدة .

وقال المسلمون وأجمعوا على أنه إذا كانت عقيدة اليونان حقاً فعندنا ما هو أحقُّ منها ؛ وهو القرآن الكريم ، وهو بالأسلوب الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

وإذا كانت باطلاً فإننا فى غنًى عنها . . وكذلك كان شأنهم وموقفهم فيما يتعلق بالأخلاق . . كانوا يعتزون بأخلاقهم ،

ويعتزون بعصبيتهم لعقيدتهم وأخلاقهم المنزَّلة المُوحَاة . . إلى درجة أنهم لا يرون أن يكون هناك أيُّ كتاب ، أو رأى ، يقوم بجوار هذه المبادئ الإلهية الإسلامية ، سواء أكانت عقيدة أم أخلاقاً . . . ولم يترجموا كتب الأخلاق إلى أن جاء «المأمون» . .

والمأمون ـ بتربيته الفارسية ـ كان عنده من التهاون القليل ، أو الكثير ، ولم يكن عنده من التحرُّج ما كان عند غيره ، فأمر بترجمة الكتب التى تتصل بما وراء الطبيعة ، والكتب التى تتصل بالأخلاق . . وقام بترجمة هذا على الرغم من النفور العام من المسلمين المؤمنين المتدينين .

وتُرجمت كتب ما وراء الطبيعة ، وتُرجمت كتب الأخلاق ، على الرغم ـ أو على نُفور ـ من هؤلاء الذين يرون أن العقيدة الإسلامية يجب ألاَّ يكونَ بجوارها شيءٌ آخر ، وأن الأخلاق الإسلامية يجب أن تكون مستقلة لا يكون بجوارها شيءٌ ، ولا تُدَنَّس ، ولا تتلوَّث بما يُتوهَّم أنه حَقٌّ بجانب الحق .

لكن الترجمة ـ ترجمة ما وراء الطبيعة ـ أخذت مجالها ، وترجمة الأخلاق أخذت مجالها ، بل أصبحت مألوفة ، وأصبحت وكأنها شىء عادىٌّ . . وليست ترجمة الأخلاق ، وليست ترجمة ما وراء الطبيعة أقل شأناً ـ فيما يتعلق بالجو الإسلامى الصحيح ـ من الورقة التى كانت بيد سيدنا عمر .

إن العقيدة الإسلامية، والأخلاق الإسلامية، هى التى تكوِّن ذاتية المسلم . أى أن ذاتية الأمة الإسلامية لا تتكوَّن بكيمياء أمريكية لأن الكيمياء - كما قلنا - لا لون لها، ولا تتكون بطبيعة ألمانية أو إنجليزية أو ... لأن الطبيعة لا لون لها .

حقيقة أنه لابد من الكيمياء، ولابد من الطبيعة - كما قلنا - للقوة، وللغَلَبة، وللسلطان، ولتأدية الرسالة من أجل الحق والخير .

إن الذى يكوِّن ذاتية الأمة إنما هو اللون الثقافى فيها، وقد رأينا موقف الرسول ﷺ وموقف المسلمين الأُوَل منه . .

وعلى أى وضع، إذا نظرنا إلى هذه الثقافة فى نفسها - الثقافة النظرية - وهذا هو الجانب الذى أهتم به كثيراً، وأريد أن أنبِّه الأذهان من جديد إلى أننى أتحدث عن ثقافة لا تتصل بالملاحظة ولا بالتجربة ؛ أى أنها ثقافة ليست بحسِّيَّة .

أتحدث - إذن - عن الثقافة النظرية البَحْتَة، عن الفلسفة، عن الأخلاق، عن هذا الجانب فى «علم الاجتماع» الذى لا يتصل بالملاحظة والتجربة، عن هذا الجانب فى «علم النفس» الذى لا يتصل بالملاحظة والتجربة . . عن هذه الجوانب فى أى «علم»، وفى أى « موضوع » . . الجوانب التى لا تتصل بـ « التجربة» و«الملاحظة » .

إن التجربة تتحكَّم فتكون فيصلاً فيما يتعلق بالحق والخطأ، لكن المجالات النظرية البحتة ليس لها هذا الفيصل الذى يفرِّق بين الحق والباطل.

ما وراء الطبيعة مجالٌ نظرىٌّ بَحْتٌ، وهو يختلف من فرد إلى آخر. ويتعدد بعدد اختلاف الأفراد.. إذا جئنا للجو اليونانى فإنَّا نجد أن أفلاطون فيما يتعلق بتصوُّر (الإله) يختلف عن أرسطو، وتصوُّر أرسطو يختلف عن تصوُّر الرواقيين، وتصوُّر الرواقيين يختلف عن تصوُّر أبيقور أو الأبيقوريين.

يصوِّر **أفلاطون** الإله على أنه مثالٌ للخير على رأس المُثُل، أو مثالٌ للجمال على رأس المُثُل..

ومع أن **أرسطو** من مدرسته فإنه يصوِّر الله سبحانه وتعالى بصورة أخرى.. ويرى أنه المحرِّك الأول، وهذا المحرِّك الأول ليس هو الذى يحرِّك العالم، وليس هو الذى خَلَق العالم، وليس هو الذى صوَّر العالم وكوَّنه، بل إنه لا يعلم عن العالم شيئاً مطلقاً.. لا يعلم عن العالم شيئاً، يستوى فى ذلك التافه من أمره والعظيم منه.. إنه لا يعلم حتى مجرد وجود العالم.

وتأتى **الرواقية**؛ فترى الله - سبحانه وتعالى - يمتزج بالكون امتزاجاً كاملاً، فهو سِرُّه، وهو فى كل ذرة من ذراته، وفى كل خلية من خلاياه.

ويأتى **أبيقور** . . ويقول : ليس هناك شيء اسمه «الله» . . وليس هناك إله .

وتختلف هذه المدارس باختلاف أفرادها وباختلاف رؤسائها . . وقبل أن نستمر فى شرح موضوع هذه الثقافة النظرية البحتة ، قبل أن نستمر فيها طويلاً . . أريد أن أتحدث عن قصة لها مغزاها العميق كى تكون أمام أنظارنا حينما نضرب الأمثال فيما بعد ، هذه القصة يرويها مؤرخو الفلسفة اليونانية :

اجتمع **سقراط** باثنين من **الفيثاغوريين** ـ من كبار فلاسفة «الفيثاغورية » ـ أحدهما اسمه «**سيمياس**» ، وكان من كبار الفلاسفة . . اجتمعوا يتناقشون فيما يتعلق بخلود الروح : هل هى باقية بعد الموت ؟ . . هل هى مستمرة ، أم أنها فانية ؟ . . هل الإنسان حينما يموت ، يموت مادةً وروحاً ، أم أنه يموت مادةً فقط وتبقى الروح ؟ . . وهل الروح خالدة ؟ . .

كانوا يتحدثون فى هذا الموضوع ، ويحاولون ـ ما استطاعوا ـ أن يقيموا الأدلة على خلود الروح ، على أنها باقية بعد الموت . . ثم تنتهى بهم الأدلة ، وينقطع بهم البرهان . .

يقول سيمياس لسقراط :

إن الموضوع ما زال فى حاجة إلى بحث أكثر ، ولكن هذا جهد العقل ، وهذا غاية ما يستطيعه العقل .

ويوافق سقراط ثم يقول متأسفاً :

إن العقل فى مجال ما وراء الطبيعة مثله مثل لوح من خشب ، يريد الإنسان أن يقطع به البحر فى يوم عاصف. أما مَثَلُ الدين بالنسبة لما وراء الطبيعة فإنه المركب الأمين لقطع البحر .

ويأسفون جميعاً على أنه لم ينزل دينٌ يحدِّد الموضوع تحديداً تاماً ، يحدِّد مسألة خلود الروح ، ويعترفون بأنه لو كان قد نزل دينٌ يحدِّدَ هذا الأمر فإنهم كانوا يستجيبون إليه ، ويؤمنون به ويستسلمون ، وتهدأ نفوسهم فيما يتعلق بهذا الأمر .

لا جدال أنَّ نقَاشَ العقل فى محيط ما وراء الطبيعة لوح من خشب لقطع البَحر ، ولكنه ـ فى حقيقة الأمر ـ لوح من خشب فى كل علم نظرى ، لا مجال للتجربة ولا للملاحظة فيه .

وخُذْ أيَّ مادة من المواد النظرية ، خُذْ ما وراء الطبيعة ، خُذِ الأخلاق ، خُذِ التشريع ، خُذْ هذه النواحى الكثيرة المتعددة التى سُمِّيت بأسماء علوم مختلفة ، وهى كلها نظرية ، فإنك ستجد العقل دائماً هو لوح الخشب الذى لا يتأتى أن يقطع به الإنسان البحر ، مهما احتوى ، ومهما كان يحاول أن ينجو بهذا اللوح .

والفلسفة فيما يتعلق بالعالم الحديث ، كل فلاسفة العصر الحديث مختلفون على أنفسهم ، ليس بينهم فيلسوف واحد يتفق مع الآخر ، وإلا لما كان فى حاجة إلى أن يُنشئ فلسفة جديدة لو اتفق مع زميله .

ومعنى الفلسفة أنها ابتداع دين بجوار الدين أو عقيدة بجوار العقيدة . . كذلك الأمر فيما يتعلق بالأخلاق، إنها على هذا النَّسَق، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتشريع : إنه على هذا النَّسَق، وإذا تُرك التشريع للعقل فسيكون هناك الاختلاف، وإذا تُرك ما وراء الطبيعة للعقل فسيكون هناك الاختلاف أيضاً . .

والمَخْرَج أن نصدر - في كل هذه الأمور - عن الدين ، ولا مجال لرأى آخر ، إذا أخلصنا . . لابد من أن نعتمد على الدين في هذه المجالات الثلاث :

*** مجال ما وراء الطبيعة.**

*** مجال الأخلاق.**

*** مجال التشريع .**

هذه « المجالات » ثابتة في الدين . . مستقرة . . لا تقبل التطور . . مجال العقيدة لا يقبل التطور، العقيدة هي هي . .

لا تختلف العقيدة الدينية الإسلامية من بيئة إلى أخرى، ولا من قُطر إلى آخر ، ولا من زمن إلى زمن ، ولا من مكان إلى مكان . . ولا تختلف الأخلاق الإسلامية - أيضاً - من بيئة إلى أخرى، ولا من مكان إلى مكان ، ولا من زمن إلى زمن ، فهي هي . .

وإذا كان الموقف على هذا النمط في العقيدة والأخلاق ، أهو كذلك فيما يتعلق بالتشريع ؟..

* * *

٤ـ ما يتعلق بالتشريع

أما فيما يتعلق بالتشريع فإن كثيراً من الناس يعتقدون أن التشريع الإسلامى متطور، ولكن التشريع مبادئ ووسائل . . وقد يترك الإسلام بعض الوسائل غير محدَّدة، يتركها للزمن . . ولكن النتائج أو الغايات هى هى .

مثلاً : مبدأ الشورى، لم يحدد وسيلته الإسلام . . أى أن الشورى نفسها مبدأ إسلامى ثابت، ووسيلة الشورى لم يحددها الإسلام، وتركها للبيئات، وتركها للأزمان، يحددونها عن طريق البرلمان ، أو بأىِّ طريقة أخرى . . يحددونها كيفما شاءوا .

لكن الغايات، النهايات، المبادئ ، القواعد . . إنها ثابتة .

ويتساءل كثير من الناس :

ـ وما شأن الاجتهاد إذن ؟ . .

والواقع أن هذا الجانب يضلُّ فيه كثير من الناس، أو يزلُّ فيه كثير من الناس .

الاجتهاد فى الإسلام معناه أن يحاول المجتهد ما استطاع، وأن يحاول ما أمكنه، وأن يربط بين حادثة حدثت جديدة، وبين قاعدة إسلامية موجودة . . أو أن يُدخل فى نطاق قاعدة إسلامية عامة حادثةً من الحوادث التى حدثت جديدة . .

فليس الاجتهاد ـ إذن ـ ابتداعاً، أو اختراعاً ، أو تطوراً . . ليس فيه شيء من هذا القبيل ، وإنما هو محاولة جاهدة ، كادحة ، دائبة ، مستمرة ، للوصول إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، وما كان يمكن أن يكون رأى الرسول ﷺ لو كان الرسول موجوداً .

و« **إذا صَحَّ الحديثُ فهو مَذهبى** » قاعدة تنقض كل شبهة من الشبهات التى ترمى إلى أن الاجتهاد إنما هو ابتداع أو اختراع ، أو هو شيء من هذا القبيل . .

فليس ـ إذن ـ فى الجانب الإسلامى تطور . . أقول هذا لأنه من أخطر الأمور على العقيدة الإسلامية ، وعلى الجو الإسلامى ، الفكرة التى تسود فى كثير من الأوساط ، والتى هى سائدة فى الثقافة الأوربية الآن . . أعنى : فكرة «التطور» ، وفكرة التطور تتناسب مع الثقافة فى أوربا .

والثقافة فى أوربا ـ الثقافة النظرية التى لا تتصل بالتجربة أو بالملاحظة ـ الثقافة النظرية فى أوربا متطورة ، وهذا حقيقى . .

متطورة لأنها بشرية . . وكل ما هو بشرى من نتاج العقل البشرى فإنما هو نسْبِىٌّ ، وهو ـ إذن ـ متطور ، إنه نسبىٌّ متطورٌ ، وقد يكون هذا التطَور تطوراً إلى القديم ، لا تطوراً إلى شيء جديد . .

يعنى مثلاً : مذهب **الوجودية** الحالى الذى يقال إنه مذهب

جديد كل الجدة إنما هو مذهب **السوفسطائية** القديم ، لا أكثر ولا أقل .

إنه المذهب الذى يرى أنه ليس هناك حقيقة مُطْلَقة . . وإنما الإنسان يكيِّف نفسه، ويوجِّه نفسه . . وهو ليس فى هذا إلا فرداً من الأفراد له رأيه الخاص ولذلك لا يفرض رأيه على الآخرين لأنه ليس هناك حقائق مطلقة . . فهو عودة إلى المذهب القديم ـ مذهب السوفسطائية القديم ـ المذهب الذى لَفَظَتْهُ كل البيئات السليمة . .

ومذهب الوجودية ـ فى الحقيقة والواقع ـ تلفظه كل بيئة سليمة، وكل بيئة صحيحة . . إنه لا يسود إلا فى البيئات المريضة التى لا ترى وزناً للقيم الأخلاقية ، ولا للدين ، ولا للحقائق المطلقة . .

وترى أن الإنسان يكوِّن نفسه من الألف إلى الياء مستقلاً عن التقاليد ، وعن الدين ، وعن الحقائق ، وعن كل شىء فى المجتمع . .

فكرة التطور نشأت مع **داروين**، وكانت لها شهرة قوية فى أوساط أوربا وفى أوساط الشرق، ولكن هذه الفكرة نفسها ـ باعتراف كل العلماء ـ فيها الفجوات التى تجعلها ظَنِّيَّة ، لا يقينيَّة . . إنها فكرة ظنية لم تصبح يقيناً . . وكثير من العلماء هاجمها

وعارضها وأقام الأدلة على انهيارها . . ولكنها مع ذلك سادت في بعض الأوساط الشرقية ، وأصبحنا الآن ـ وهذا هو الخطر الذى نحذر منه ـ نرى كتباً بأقلام المسلمين ، وبأقلام المفكرين الكبار تقول بفكرة التطور وكأنها حقيقة موجودة . .

وما من شك في أن هناك التطور المادى ، لا ينكر ذلك أحد . هناك التطور من الفحم إلى وابور الغاز إلى البوتاجاز ، وهناك التطور من السيارة إلى الطائرة . . . إلخ . . هناك التطور المادى ، لا ينكر ذلك أحد إطلاقاً . ولكن هذا التطور المادى لا دخل له مطلقاً ولا شأن له مطلقاً بتطور العقل من حيث هو عقل الإنسان .

إن الانسان من حيث هو إنسان لم يتطور عقله من حيث هو عقل ، لم يزد ، لم يكن ـ مثلاً ـ عشر درجات ثم أصبح خمسين درجة وما شَاكَلَ ذلك . .

الإنسان لم يتطور إلى كائن آخر ، إنه ما زال هو الإنسان الذى وُجد منذ عهد « آدم » إلى الآن . . ولكن من المؤسف أن بعض المفكرين الإسلاميين يسيرون في الأمر وكأن «التطور» حقيقة واقعية ، وكأن «التطور العقلى» حقيقة واقعة ، وكأنه يقين مطلق ، وفى هذا خطورة كبيرة .

أضرب مثلاً للخطورة حينما تدخل فكرة التطور في مسائل الدين :

إن أحد كبار المفكرين الإسلاميين ـ وله شهرة ذائعة فى الجو الإسلامى ـ حينما أراد أن يفسر القرآن ! ! وحين أراد أن يفسر قصة سيدنا آدم وخَلْق سيدنا آدم، وأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملائكة بالسجود له . . وكان فى ذهنه فكرة « التطور » . . وأن الإنسانية بدأت بكذا وكذا . . وأن آدم ليس هو أول الإنسانية مباشرة، يعنى أن الإنسانية لم تبدأ بآدم مباشرة، كان فى ذهنه كل ذلك، فلما جاء يفسر القرآن ـ مباشرةً ـ ويفسر قصة آدم، فسَّرها على أنها تصوير، مجرد تصوير، مجرد تمثيل، مجرد قصة . . لماذا ؟ . . مجرد تمثيل . . لماذا ؟ . . مجرد تصوير . . لماذا ؟ . . ليخرج من فكرة التطور، وحتى لا يلتزم بقضية أن «آدم» إنما هو أول البشرية حقاً، أول البشرية مخلوقاً خَلْقاً جديداً، مُنْشَأً من الله سبحانه وتعالى، سَوَّاه بيديه، ونفخ فيه من روحه . .

وإذا كانت قصة آدم تمثيلاً، وإذا كانت تصويراً، فلا يبقى شىء فى القرآن لا يمكن أن يُؤَوَّل .

وإذا أوَّلنا قصة آدم، إذا أوَّلنا قصة سجود الملائكة، إذا أوَّلنا كل ذلك ـ وقد ذُكرت فى القرآن عدة مرات ـ إذا أوَّلناها فإنه لا يبقى فى القرآن أو فى الإسلام شىء لا يمكن أن يُؤَوَّل . . وفى تأويل كل شىء القضاء على الإسلام .

ـ وعلى هذا ففكرة « التطور » يجب ألاَّ تدخل فى المحيط

الفكرى الدينى للمسلمين، وكل مَنْ أدخلها فى المحيط الفكرى الدينى الإسلامى إنما يضر الإسلام ويكون خطراً على الإسلام أكثر من العدو العاقل. . هذا الصديق الجاهل يكون خطراً على الإسلام أكثر من العدو العاقل، وهذا مَثَل ـ مجرد مثل ـ من الأمثلة الكثيرة.

وعلى كل حال فإن الكتب الحديثة تجدها دائماً قائلة بفكرة التطور، وأن الإنسانية تطورت، وأنها. . . إلى آخر كل هذه النواحى التى إذا أدخلناها فى محيط العقيدة، أو أدخلناها فى محيط الأخلاق، أو أدخلناها فى محيط الدين، فإنها تجعل من الدين مجموعة من المبادئ النسبيَّة، ومعنى مجموعة من المبادئ النسبيَّة : أنها ليست حقائق مطلقة، وأنها يمكن أن تتطور وتتطور إلى اللانهاية. . ويأتى يوم من الأيام وقد انفصلنا عن الدين وعن المبادئ الدينية. . الانفصال الكامل.

فكرة التطور ـ فيما يتعلق بالحضارة الحديثة ـ قام بها داروين، ويعترف اليهود أو يعترف الصهيونيون فى كتابهم وفى مبادئهم «بروتوكولات حُكماء صهيون» . . يعترفون بأنهم هم الذين وضعوا داروين فى الأفق، على المنصَّة، وهم الذين أعلنوا عنه، وهم الذين أذاعوا فكرته، وهم الذين حَبَّذوها، وهم الذين نشروها فى كل مكان، وذلك لأنها تقوِّض الأديان من أساسها، وهى مع ذلك ـ كما قلنا ـ فكرة ظنية، وكلما تقادم الزمن بها وكلما تقادم العهد بها؛ ازداد الشك فيها.

الثقافة الحديثة، أو الحضارة الحديثة، فى جانبها الثقافى، إذا رحبنا بها فإن ذلك يُعَدُّ من الحُجُب التى تحجب شيئاً فشيئاً الفكرة الإسلامية . .

وإنه لمن المعقول أننا ـ وعندنا القرآن وعندنا السُّنَّة، وقد طُبِّق القرآن وطُبِّقت السُّنَّة فكان ازدهار الأمة الإسلامية، من المعقول أن نصدر فى ثقافتنا عن ذاتية إسلامية، عن قرآن وسُنَّة . . وكل هذا البريق فيما يتعلق بالحضارة الحديثة فى جانبها الثقافى يجب ألاَّ يخدعنا . .

مثلاً ـ الحرية والمساواة :

من الغريب أن الأوربيين أنفسهم من كبار المفكرين فى أوربا نفسها يرون أن هذين المبدأين متعارضان . .

يرون أنه إذا وُجدت «الحرية» فلا مساواة . . وإذا وجدت «المساواة» فلا حرية .

يرون التعارض فى المبدأين ، وأنهما لا يجتمعان، لأنه إذا وُجدت المساواة فكيف تتأتَّى أن توجد الحرية، وإذا فُرضت المساواة فرضاً فكيف تتأتَّى أن توجد الحرية، وإذا فُرضت الحرية فرضاً فكيف تتأتَّى أن توجد المساواة . .

المبدأ الإسلامى : الأخوَّة . . مبدأ سليم لا غبار عليه، ولا اعتراض عليه . . يجب ألاَّ نضع بجوار الأخوَّة مبادئ متعارضة يراها الأوربيون أنفسهم متعارضة، ويلاحظون هذا التعارض،

ويرفضون أن تكون هذه المبادئ بجوار بعضها، تكون وحدة، وتكون شعاراً، ثم نأتى نحن فنأخذها . .

- ثم إذا جئت إلى المساواة وقلت: أين هى؟..

إنها لا تتأتَّى أن توجد مطلقة فى قُطر من الأقطار، ولا فى بلد من البلاد، ولا فى أسرة من الأسر . .

ويقولون: ولكن نحن لا نقصد المساواة المطلقة، وإنما نقصد المساواة فى الحقوق والواجبات.

إذا قلنا إن الشعار الإنسانى «لا مساواة إلا فيما يتعلق بالحقوق والواجبات» كنا - إذن - صادقين، ويكون هذا أصدق . . يكون هذا أصدق لأن مبدأ اللا مساواة هو المبدأ السائد، وهو المبدأ الإنسانى السائد فيما عدا الحقوق والواجبات.

إن اللا مساواة هى الموجودة فيما عدا الحقوق والواجبات، بل الحقوق والواجبات فى نفسها ليست فيها مساواة.

- ثم إذا جئت إلى الحرية، أين هى ؟ ..

إن الإنسان ليس حُرّاً فى اختيار الاسم الذى يتسمَّى به، ولا فى اختيار اللغة، ولا فى اختيار نمط الملابس، ولا فى اختيار طريقة الركوب، وطريقة السير . . ثم إنه ليس حراً فيما يتعلق باختيار الطريق الذى اتبعه فيما يتعلق بالمدرسة، وفيما يتعلق بالتربية . . . إلخ.

لست حراً فى طريقة الأكل ، ولا فى طريقة الشرب ، ولا فى شىء من هذا . . إذا قلت إن تسعمائة وتسعة وتسعين فى الألف من الأشياء لست حراً فيها تكون صادقاً .

إذا قلت أو فسَّرت الحرية بأنها «الحرية فيما لا يضر الغير» أيضاً لا تكون الفكرة صادقة . .

الحرية فيما لا يضر الغير أيضاً ليست موجودة ، لنفرض مثلاً أن شخصاً من الأشخاص - وليكن طالب علم مثلاً - ذهب إلى الكلية وهو ساتر للعورة فقط - يعنى من الركبة إلى السُّرَّة - وذهب إلى الكلية على هذا النمط . . إنه - دينياً - لا غبار عليه ، وهذا لا يضر شخصاً آخر ، ولكنه مع ذلك لا توجد فيه هو نفسه الجرأة لأن يفعل ذلك ، فهو ليس بِحُرٍّ فى أمر يبيحه الدين ، ولا يضرُّ الآخرين . .

أى أن الحرية والمساواة كلمات جوفاء ، فى حقيقة الأمر ، لا معنًى لها معنًى حقيقياً محدداً فيما يتعلق بالأفهام . .

إن كل كلمة منهما لا تَصْدُق وليس لها حقيقة واقعية ، ومع ذلك نُشيد بهما كأنهما من اختراعات الغرب الكبرى التى لها المثل الأعلى فيما يتعلق بهذه الحضارة الغربية الحديثة . .

إن الحضارة الغربية الحديثة فيها من أمثال ذلك أشياء كثيرة يجب أن نتنبه لها . .

ومن هذه الأشياء ـ في الجانب الثقافي أيضاً ـ ما يقال من أن «العلم للعلم»، أو «الأدب للأدب»، أو «الفن للفن» . . كل هذه لها خطورتها فيما يتعلق بالأجواء الإيمانية . .

في جو الإيمان لا يتأتى مطلقاً أن يكون «الأدب للأدب»، وإنما الأدب للأخلاق، للفضيلة، لترقية الفِطَر، لإثارة الشعور الديني الكريم . . لكل هذه المعاني . . أما فكرة «الأدب للأدب» فإنه لا يستسيغها مطلقاً عقل أو قلب مؤمن .

كذلك فيما يتعلق بالفن للفن . . «الفن للفن» معناه أنك ترسم الصورة العارية كما شئت، أو ترسم الصورة التي تثير الغرائز كما شئت . . «الفن للفن» أيضاً فكرة لا يتأتى لمؤمن أن يقول بها ، أو أن يمتدحها، أو أن يتبناها شعاراً له .

هذه النواحي كلها، وكثير غيرها ـ فيما يتعلق بالثقافة الغربية الحديثة ـ الثقافة النظرية ـ يجب أن نكون بعيدين عنها كل البعد، وأن نتبع في هذا الجانب الإسلامي وحده، نجعله الأساس، نجعله المصدر الموجِّه .

إن هذه الآراء الثقافية النظرية الحديثة هي ـ كما يقول أحد كبار المفكرين في أوربا ـ مثلها كمثل « الموضة » وأزياء النساء؛ تتبدَّل من عام إلى عام، ومن فترة إلى فترة . .

إن «موضة» هذا العام في علم النفس ـ مثلاً ـ هي كذا ، هي نظرية فلان، أو هي نظرية فلان . . و«الموضة» في العام المقبل ـ

أو فى العام الماضى ـ نظرية أخرى . . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالفلسفة، أو فيما يتعلق بالتشريع . . . إلخ .

هذه النواحى كلها تجعلنا حذرين فيما يتعلق بالقسم الثقافى من الحضارة الحديثة، بل يجب أن نكون بعيدين عنه كل البعد، وأن نصدر عن ذاتية إسلامية، وعن مبادئ إسلامية، وعن قاعدة إسلامية، وعن جو إسلامى .

والنتيجة التى أريد أن أنتهى إليها من هذه المحاضرة، وهى الخاتمة، إنما هى العودة إلى الإسلام . .

العودة إلى الإسلام ـ ملاحظة وتجربة . منهجاً وقوة مادية ـ :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(١) .

العودة إلى الإسلام من تسخير الأرض . . وتسخير السماء . . وتسخير ما بين الأرض والسماء . . وتسخير الكواكب، وتسخير الشمس والقمر . . وتسخير البحار والأنهار .

*** العودة إلى الإسلام أقوى ما تكون فى الجانب المادى.**

*** والعودة إلى الإسلام والاعتزاز بالإسلام أقوى ما يكونان فى الجانب الثقافى .. سواء اتصل ذلك بـ «العقيدة» أو اتصل ذلك بـ «التشريع» أو اتصل ذلك بـ «الأخلاق».**

* * *

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

عن الفلسفة

- البشرية تسير فى طريق الخطأ منذ « سقراط » .
- ليست كل دراسة فلسفة .
- محاولات التوفيق .
- الجو الذى نشأت فيه الفلسفة .
- سمات الفلسفة .
- منهج الفكر الفلسفى .
- خاتمة فى الفلسفة .

١ـ البشرية تسير فى طريق الخطأ منذ سقراط

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١) .

إن أمر العقيدة ، وأمر الأخلاق ، وأمر التشريع ، وأمر نظام المجتمع . . كل ذلك مَرَدُّه إلى الله سبحانه وتعالى . .

ومن أجل ذلك أرسل الله سبحانه رسله يبلغون عنه كلمة الحق فى هذه المسائل .

والحق فى هذه الأمور كلها ، الحق الذى أتى به الوحى :

١ ـ لا يتناقض مع العقل، فليس فيه ـ مثلاً ـ أن جزء الشىء أكثر من كله.

٢ـ يفهمه العقل، لأنه سهل مُيسَّر.

٣ـ يقبله العقل، إنه معقول.

٤ـ ولكنه ليس اختراعاً بشرياً وليس مردُّه إلى الاختراعات البشرية.

---

(١) سورة المجادلة : ٢٢ .

والعهد اليونانى إذن بوضعه أمور الدين (عقيدةً وأخلاقاً، وتشريعاً، ونظاماً للمجتمع) على بساط البحث العقلى، إنما انفصل بذلك عن النظرة الدينية الصادقة.

ومن الحق أن نقول: إن «العهد اليونانى» كان له عذره فى ذلك . . !

فقد كان النابغون فيه أمام دين خرافى ، فاضطروا اضطراراً إلى الالتجاء إلى العقل .

ولكنهم بمجرد أن بلغتهم الرسالة الصادقة، كان يجب عليهم مباشرةً الأخذ بها فى صفائها وطُهرها !! ولكنهم لم يفعلوا !

وصادف اتجاههم البشرى ، ونظرتهم البشرية إلى أمور الدين هوًى فى نفس بنى البشر الذين رغب الكثيرون منهم أن يكونوا هابطين مع الطبيعة البشرية غير مستجيبين إلى التوجيه الإلهىِّ السامى، فسارت البشرية ـ فى كثير من أفرادها ـ فى تيارهم إلى اليوم .

وكان من آثار ذلك: أن سارت الثقافة النظرية فى العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع ـ عند كثيرين ـ فى تيارات منفصلة عن الدين، وخضعت للفكر البشرى، وللطبيعة البشرية فى نزواتها ونزعاتها، فكان الأدب المكشوف، والصور العارية، والتماثيل العارية، وأفلام الجنس، وكتب الجنس. وكان الإلحاد، وكانت المحاولات الدائبة لهدم الأخلاق، وكان الانفصال عن

التشريع الإلهيِّ، وكان كل ما يتنافى مع النظام الإلهيِّ للمجتمع، والذى أنبت الشجرات الأولى لكل ذلك إنما هو «العهد اليونانى» حينما غيَّر مجرى الأوضاع السليمة فى الفِطَر السليمة.

وكان فى قمة هذه الانحرافات وضع مسألة وجود الله سبحانه موضع البحث ومحاولة إخضاعها للاستدلال.

ولا ريب فى أن هذه العشرات من الأدلة العقلية على وجود الله.. بل المئات - منذ عهد «سقراط» إلى عهد «ابن سينا» إلى زمن «ديكارت».. إلى الفترة الراهنة - هى من النَّفَاسَة بحيث لا يسع الإنسان إلا أن يسجل الثناء على هذا المجهود الضخم المستفيض!..

ولكن ذلك لا ينفى أن هذا الطريق الذى سارت فيه البشرية - منذ عهد سقراط - طريق خطأ فى جميع زواياه!

وإذا كان هناك حديث فى مسألة الاستدلال فإنه لا يكون بشأن الألوهية - إنها فطرية - إنما يكون بشأن النبوَّة.

ومن أجل ذلك يقول ابن عطاء الله السكندرى هذه الكلمات النفيسة فى وجه كل من تحدِّثه نفسه بمحاولة الاستدلال على وجود الله تعالى:

« إلهى .. كيفَ يُسْتَدَلُّ عليكَ بما هو فى وجودِهِ مُفْتَقِرٌ إليكَ، أيكونُ لغيركَ - من الظهورِ - ما ليسَ لكَ حتَّى يكونَ هو المُظْهِرَ لك ؟!..

مَتَى غِبْتَ حتَّى تحتاجَ إلى دليلٍ يدلُّ عليك ؟!.. ومَتَى بَعُدْتَ حتَّى تكونَ الآثارُ التى تُوَصِّلُ إليك ؟! ».

وابن عطاء الله السكندرى ينهج فى ذلك نهج القرآن الكريم ، ونهج من تبع القرآن الكريم من ذوى الآفاق والبصائر المستنيرة .

وذلك أن القرآن الكريم لم يجعل من وجود الله - قَطُّ - مسألة جدليَّة ولم يضع وجوده سبحانه محلَّ شك يحتاج إلى استدلال ، ولم يجعل من مسألة الوجود هدفاً من الأهداف التى تحتاج إلى مناقشة وإثبات .

وقد التبس الأمر على بعض الناس ؛ فظنُّوا أن حديث القرآن عن العناية بالإنسان ، وعن الحكمة فى التقدير ، وعن العظمة التى تتجلَّى فى مجالات البصر إنما هو حديث فى إثبات وجود الله ! كَلاَّ . . إنه حديث عن صفات الله الموجود ، عن حكمته ، عن عظمته ، عن إبداعه ، عن تدبيره ، عن قدرته . . وليس حديثاً فى إثبات وجوده ، وجدل سيدنا إبراهيم مع قومه لم يكن لإثبات وجود الله ، وإنما كان بياناً لبعض صفاته التى لا تنطبق على من يعبدون مَنْ دونه . . فيقول سبحانه :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي

فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾(١) .

استفاض القرآن فى ذلك ولكنه لم يتحدث عن إثبات الوجود .

بيد أن «العهد اليونانى» أخذ فى إثبات وجود الله عقلياً . . وتابعته الإنسانية فى الشرق والغرب ، وسار هذا النمط على مر العصور سُنَّةً مَسنونةً ، وشريعةً عند بنى البشر تُتَّبع ، وهو نمطٌ مُنحرف .

قد يقول قائل : وماذا فى ذلك من بأس ؟ . . إنه استدلال عقلى مُنَاصِر .

فهل على الدين من ضير إذا ناصره مُناصِر يسير فى تياره ؟

ووجهة النظر هذه تروج عند الكثيرين ، ولكننا نعارضها ، ويعارضها معنا جميع الناس فى الأجواء الصادقة الإيمان ، المستنيرة البصيرة ، وذلك لأمور ، منها :

١ـ أن وجود الله بديهيٌّ، وما كان بدهياً لا يحتاج إلى دليل، وهذه «الدول» التى أخذت ـ منذ خمسين عاماً أو أكثر ـ تعمل

---

(١) سورة الأنعام: ٧٤ ـ ٨٠ .

بمعاول من فساد على هدم الدين لم تستطع أن تنفذ إلى أعماق المؤمنين فتستجيب لمعاولها ، كَلاَّ .. إنهم ـ رغم الهدم والدعاية، بل والسجن والتنكيل ـ ما زالوا مؤمنين.

٢ـ وأما الأمر الثانى ـ وهو الأمر المهم ـ فهو أنك إذا جعلت الاستدلال مشروعاً فقد جعلت فى الوقت نفسه الإنكار مشروعاً وإذا أثبتت بعض العقول فإنك لا تعدم ندرةً من الشواذ ينكرون ويستدلون عقلياً على ما أنكروا ، ويكون المستدلُّ هو الذى فتح الباب لهذه الندرة من الشواذ ومن المنحرفين الذين غلبت عليهم أهواؤهم وتوهماتهم .

٣ـ والله سبحانه وتعالى أعلى من أن يحتاج إلى استدلال على مجرد وجوده ، وأقدس من أن نجعل مجرد الوجود فى حاجة إلى استدلال ، وأجَلُّ من أن نضع وجوده على بساط البحث..

يقول سبحانه :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(١) .

وقد يقول قائل :

ـ وماذا نفعل مع هذه الندرة من أصحاب الفطَر الشاذة ؟

وأمر هذه الندرة سهل إذا استجبنا للإسلام .

والاستجابة للإسلام فى ذلك معناها التزام أمرين :

---

(١) سورة الأنعام: ٩١ .

الأمر الأول: اعتبار الدين من مقدساتنا التي لا تُمَسُّ. إن لكل دولة مقدسات. فالشيوعية مثلاً في بعض الدول هي من المبادئ التي لا تُنتقد، والذات الملكية في بعض البلاد لا يُجيز القانون أن تُتناول بالنقد، والرأسمالية ـ كنظام اجتماعي ـ لا يجوز في أمريكا عمل دعاية ضده، ولا تُجيز أمريكا الدعوة إلى الشيوعية.. وهكذا.

وما دمنا ـ والحمد لله ـ مسلمين ودين الدولة هو الإسلام فإنه من النتائج التي تترتب على ذلك أن يُحرِّم القانون مَسَّ المبادئ الدينية بنقد أو سخرية أو هدم.

أما **الأمر الثاني** ـ ولابد منه ـ فهو أن تُطَبَّق الشريعة الإسلامية بالنسبة للمرتدِّين.

وبعد:

فإن الإمام الكبير، إمام الشريعة والحقيقة، تاج الدين بن عطاء الله السكندري يقول معبِّراً عن رأي أصحاب البصائر الملهمة:

« شَتَّانَ بينَ مَنْ يَسْتَدِلُّ به أو يَسْتَدِلُّ عليهِ: المُسْتَدِلُّ به عرفَ الحقَّ لأهلهِ، فأثبتَ الأمرَ مِنْ وجودِ أصلهِ. والاستدلالُ عليه مِنْ عدمِ الوصولِ إليه .. وإلاَّ فمَتَى غابَ حتَّى يُسْتَدَلَّ عليهِ .. ومَتَى بَعُدَ حتَّى تكونَ الآثارُ هي التي تُوَصِّلُ إليهِ».



٢ـ وليس كل دراسة تسمَّى « فلسفة »

ونحن حينما نتحدث هنا عن الفلسفة فإنما نعنى : البحث العقلى . . البحث فيما وراء الطبيعة ، والبحث فى الأخلاق .

ونعنى بما وراء الطبيعة :

الإلهيَّات ، أو ما يُسمَّى ـ فى عُرْف المتكلِّمين ـ العقائد .

ونعنى بالأخلاق :

معناها الشامل الذى يتضمن التشريع الذى يُحَرِّم المنكر ، ويردع الذين يفعلونه .

وقد يخالفنا هذا الباحث أو ذاك فى هذا الذى نعنيه بالفلسفة ، ولكننا أحببنا أن نتفق والقارئ على اصطلاح محدد . . وفى إطار هذا الاصطلاح يسير بنا البحث .

يقول الأستاذ أندريه كريسون فى كتابه « المشكلة الأخلاقية والفلاسفة » ما يلى :

إن الفلسفة بمعناها الخاص قد دارت ـ ولا تزال تدور ـ حول طائفتين أساسيتين من المسائل :

١ـ المسائل النظرية:

ـ ما الكائن ؟ . .

ـ ما أصله ؟ . .

- ما المصير الذى ينتظره هو وما تفرَّعَ منه ؟ . .
- أفى طَوْق العقل الإنسانى أن يضع حلولاً لهذه المسائل ، أم أن ذلك فى حكم المستحيل ؟ . .

كل هاتيك المسائل تُعتبر مسائل ميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) .

٢- المسائل العملية:

- كيف يجب أن يكون مسلكنا فى الحياة ؟ . .
- كيف نربِّى الناشئين تربية حسنة ؟ . .
- ماذا يجب لقيادة الدولة حتى تسير على النهج المستقيم ؟ . .

كل هاتيك المسائل تتوقف عليها الأخلاق ، أو تُستمد هى من الأخلاق .

وهذا الذى ذكره الأستاذ أندريه كريسون هو رأينا الذى نسير على ضوئه فى موضوعنا هذا .

* * *

٣ـ محاولات التوفيق

إن كل من يتصفح تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام يجد مجموعة من كبار المفكرين بحثوا ـ فى تعمُّق ـ الموضوعات الفلسفية هذه، وأنتجوا فيها إنتاجاً يتفاوت ـ كَمّاً وكيفاً ـ بحسب شخصياتهم .

وبدأت هذه المجموعة بفيلسوف العرب : **أبو يوسف يعقوب ابن إسحاق الكندى**، وقد نال الكندى تقديراً كبيراً، ونال شهرة ذائعة فى الشرق والغرب، وفيه قيل :

«إنه واحد من اثنى عشر مفكراً هم أنفذ المفكِّرين عقلاً، وأرجحهم نقداً وتفكيراً» .

وعنه يقول القفطى :

«فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها» .

ونال كثير من فلاسفة الإسلام مثل ما نال الكندى من شهرة ومن تقدير، بيد أن شهرتهم وتقديرهم لم يمنعا أن يكون لهم خصوم هم من المكانة بالمنزلة الرفيعة، بل إن خصومهم أكثر من أنصارهم .

وعلى رأس خصومهم : «المحدِّثون» . . وعلى رأس المحدِّثين **الإمام أحمد بن حنبل** .. ومن خصومهم : **الإمام ابن تيمية** .

على أن الخصم الذى كان لكتابته شهرة لا حد لها ، وتأثير

عظيم هو : **حُجَّة الإسلام الإمام الغزالى** ، صاحب كتاب : «تهافت الفلاسفة» . وكلمة « تهافت » تعنى : السقوط والانهيار .

وسنتحدث ـ فيما بعد ـ عن رأى الإمام الغزالى .

ولكننا نتساءل الآن :

* لماذا كان المحدِّثون ـ وكثير غيرهم ـ خصوماً للفلاسفة ؟ . . وما هى حكمتهم فى ذلك ؟

إن موقفهم من الوضوح بمكان ، وذلك أن موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين .

إن الدين : إلهيَّات وأخلاق . . تستند إلى الوحى ، والوحى معصوم . والفلسفة إلهيات وأخلاق تستند إلى العقل ، والعقل يخطئ ويصيب ، وهو حينما يخطئ لا يعلم ـ يقيناً ـ أنه أخطأ وحينما يصيب لا يعلم ـ يقيناً ـ أنه أصاب .

ويقولون ، أو لسان حالهم يقول : لقد ضمن الله لنا العصمة فى الوحى ولم يضمن لنا العصمة فى الآراء العقلية .

وحينما أخذ المتفلسفون يترجمون كتب اليونان وغيرهم قال معارضو الفلسفة :

إذا كان ما عند اليونان فى العقائد حقاً فعندنا ما هو أحق منه ، وهو عقائد الإسلام لأنها بالأسلوب الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فنحن ـ إذن ـ فى غِنًى عن عقائدهم . وإذا كان ما عندهم باطلاً ؛ فنحن فى غِنًى عن الباطل .

وكذلك كان موقفهم من الأخلاق بمعناها العام : إن كانت أخلاق اليونان فاضلة فعندنا ما هو أفضل منها . ولم تتم مكارم الأخلاق إلا فى العهد الإسلامى :

« **إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَق** » .

وإن كانت أخلاق اليونان فاسدة فنحن نعوذ بالله من كل فساد .

وعارضوا « الترجمة » فى الجانب الإلهى ، وعارضوها فى الجانب الأخلاقى ، ولكنهم لم يعارضوها وإنما شجعوا عليها فى جانب العلوم المادية : مثل الطبيعة ، والكيمياء ، والفلك . . . وعارضوا التفلسف بكل ما أوتوا من قوة .

ولكن التيار الفلسفى استمر فى المجتمع الإسلامى ، وإذا كان قد تهافت فى المشرق بتأثير حجة الإسلام الغزالى ، فإنه قد أزهر فى المغرب على لسان **ابن باجَّه** ، **وابن طفيل** ، **وابن رشد** .

أما تبرير الفلاسفة لموقفهم فى مواجهة معارضة خصومهم فإنه يلخصه ما كتبه **ابن طفيل** فى رسالته « حيّ بن يقظان » . وما كتب ابن طفيل رسالته هذه أو قصته إلا ليبرِّر موقف الفلاسفة ويشدَّ من أزرهم بالنسبة لما يُعترض عليهم به من مخالفة الفلسفة للدين .

وتحرَّى ابن طفيل ـ فيما كتب ـ أربعة أهداف :

١ـ هل يصل الإنسان بعقله إلى إثبات وجود الله تعالى ، وإلى رسم طريق للسلوك يرضى عنه الله سبحانه ؟

٢ـ هل يصل الإنسان روحياً إلى القرب من الله ـ تعالى ـ وإلى المعرفة عن طريق مباشر..أو ـ بتعبير آخر ـ: هل الطريق الصوفي طريق موصِّل ؟.. وإن كان ابن طفيل لم يستعمل كلمة « تَصوُّف ».

٣ـ هل يلتقي الطريق العقلي والطريق الروحي في انسجام لا اختلاف فيه ؟..

٤ـ هل يلتقي ذلك كله بمبادئ الوحي ، أو بالطريق الديني ، في تناغم ووحدة وائتلاف ؟..

ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة كتب ابن طفيل قصة خيالية عقلية لطيفة .

إنها قصة طفل نشأ في جزيرة منذ طفولته الأولى وأخذ ابن طفيل يتدرَّج معه في تطوره الجسمي إلى أن اكتمل جسمياً ، وأخذ يتدرج معه في تطوره العقلي من فكرة إلى فكرة ومن مبدأ إلى مبدأ حتى وصل الفتى إلى إثبات وجود الله بطريق العقل المَحْض .

والحق أن ابن طفيل كان بارعاً في تسلسله بالأفكار والمبادئ إلى أن انتهى إلى غايته ، وهي أن الإنسان يستطيع ـ بعقله ـ أن يثبت وجود الله .

وبدأ فتانا يفكر ؛ فرأى أن كل موجود يمكن الاتصال به على وضع يليق به ، فأخذ يفكر في كيفية الاتصال . .

ونحن نحب أن ندع ابن طفيل نفسه يتكلم :

إنه يرى أن هناك رتبة من المعرفة يُنتهى إليها بطريق العلم النظرى، والبحث الفكرى، وهذه الرتبة تعتبر طوراً من أطوار «حى بن يقظان» . . «فإنه ، بعد أن شَبَّ وترعرع ، وبلغ دور التمييز، وانتهى إلى مرحلة التعقل، والاستدلال، والبرهان : أدرك - بطريق النظر - حقيقة الجسم ، وأنه مُتناه، وأدرك أبدية العالم، وحصلت عنده فكرة نظرية عما وراء الطبيعة، واستقام له الحق ، بطريق البحث والنظر» .

فلما انتهى من هذه المرحلة، بدأ فى المرحلة الثانية . .

* مرحلة الوصول إلى الحكمة بطريق الرياضة :

« وكان مما يقوم به من الارتياض : أنه كان يلازم الفكرة فى الموجود الواجب الوجود . . ثم يقطع علائق المحسوسات ، ويغمض عينيه ويسد أذنيه ، ويُضْرِبُ جَهْدَهُ عن تتبُّع الخيال ، ويروم - بمبلغ طاقته - ألاَّ يفكر فى شىء سواه، ولا يشرك به أحداً .

ويستعين - على ذلك - بالاستدارة على نفسه، وبالاستحثاث فيها ؛ فكان إذا اشتد فى الاستدارة غابت عنه جميع المحسوسات وضعف الخيال وسائر القوى التى تحتاج إلى الآلات الجسمانية . . وقوى فعل ذاته، التى هى بريئة من الجسم .

فكانت - فى بعض الأوقات - فكرته قد تخلصت عن الشوب ، ويشاهد بها الموجود، الواجب الوجود .

ثم تكرُّ عليه القوى الجسمانية فتفسد عليه حاله، وتردُّه إلى أسفل السافلين، فيعود من ذى قبل، فإن لحقه ضعف يقطع به عن غرضه تناول بعض الأغذية بحسب شرائط معينة، ثم انتقل إلى شأنه.

ثم رأى أن الحركة من أخصِّ صفات الأجسام، وكان يريد طرح أوصاف الجسمية عن ذاته، فأخذ يقتصر على السكون فى مغارته مطرقاً، غاضّاً بصره، مُعْرِضاً عن جميع المحسوسات، والقوى الجسمانية .. فمجتمِع الهمِّ والفكرة فى الموجود، الواجب الوجود، وحده دون شركة.

فمتى سَنَحَ لخياله سانحٌ سواه طَرَدَهُ عن خياله جَهْدَهُ، وَدافَعَهُ، وراَضَ نفسه على ذلك، وذهب فيه مدة طويلة، بحيث تمر عليه عدة أيام لا يتغذى فيها ولا يتحرك.

وفى خلال شدة مجاهدته هذه: ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الأشياء إلا ذاته فإنها كانت لا تغيب عنه فى وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الأول الحق، الواجب الوجود، فكان يسوؤه ذلك، ويسلِّم أنه شوب فى المشاهدة المَحْضَة، وشركة فى الملاحظة.

وما زال يطلب الفناء عن نفسه، والإخلاص فى مشاهدة الحق، حتى تأتَّى له ذلك؛ وغابت عن ذكره وفكره السموات

والأرض وما بينهما ، وجميع الصور الروحانية ، والقوى الجسمانية وجميع القوى المُفَارِقة للمواد، والتى هى الذوات العارفة بالموجود الحق، وغابت ذاته فى جملة تلك الذوات، وتَلاشَى الكلُّ واضمحلَّ ، وصار هباءً منثوراً ، ولم يبق إلا الواحد الحق، الموجود الثابت الوجود، وهو يقول بقوله، الذى ليس معنًى زائداً على ذاته :

﴿**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[1] .

ففهم كلامه، وسمع نداءه ، ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ولا يتكلم . . واستغرق فى حالته هذه ، وشاهد ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » .

وكان كل ما وصل إليه ابن طفيل عن طريق الرياضة منسجماً تماماً ـ فيما يزعم ـ وما وصل إليه عن طريق العقل .

وابن طفيل ـ فى هذا ـ يسير على نمط سار فيه ابن سينا من قبله ، وهذا التوافق بينهما بالغ الأهمية : إنهما من كبار المفكرين ويكاد فكرهما يكون متطابقاً تماماً فى أن العقل الإنسانى يصل إلى الله بالدليل والبرهان وفى أن القلب الإنسانى يصل إلى الله بالرياضة الروحية : العبادة ؛ صلاةً وصياماً وذكْراً . .

---

(١) سورة غافر: ١٦ .

لقد أثبت ابن سينا وجود الله بالعقل ، ودليله المرتكز على «**الإمكان والوجوب**» معروف مشهور . .

أما جانب الرياضة الروحية فيقول عنها فى كتابه الذى كان يعتز به كثيراً . . والذى ألّفه فى أواخر حياته . . وهو كتاب «الإشارات» :

« ثم إذا بلغتْ به الإرادةُ والرياضةُ حَداً ما عَنَّتْ له خلساتٌ من اطِّلاعِ نورِ الحَقِّ، لذيذةٌ كأنها بروقٌ تُومِضُ ثم تخمدُ عنه.

ثم إنه تكثرُ عليه هذه الغَواشِي إذا أمعنَ فى الارْتِيَاض ، فكلما لمحَ شيئاً عرجَ عنه إلى جناب القدس ، فيذكر من أمره أمراً ، فيغشاه غاشٍ، فيكاد يَرى الحقَّ فى كل شىء.

ثم إنه لتبلغ به الرياضةُ مبلغاً ينقلبُ له وَقْتُهُ سَكِينةً : فيصير المخطوفُ مألوفاً ، والوميضُ شهاباً بيِّناً ، وتحصل له معارفُ مستقرة ؛ كأنها صحبة مستمرة..» ..

إلى ما وصفه ـ على حد تعبير ابن طفيل ـ من تدرُّج المراتب وانتهائها إلى النَّيْل ، بأن يصير سرُّه مرآة مجلوَّة يحاذى بها شطر الحق .

«وحينئذ تدرُّ عليه اللذاتُ العُلاَ ، ويفرحُ بنفسهِ لما يَرى بها مِنْ أثر الحَقِّ ، ويكون له فى هذه المرتبة نظرٌ إلى الحَقِّ ونظرٌ إلى نفسه ، وهو ـ بعدُ ـ متردِّد.

ثم إنه لَيغـيبُ عن نفسه ؛ فيلحظُ جنابَ القـدس فقط ، وإنْ لحظَ نَفْسَهُ فمن حيثُ هى لاحظة ، وهناك يحقُّ الوصول » .

- ونعود إلى ابن طفيل :

إنه بعـد أن وصل إلى الله بطريق العـقل ، وبطريق الرياضـة الروحية ، تأمَّل فى ثمرة الطريقين فوجد أن نتيـجتيـهما واحدة ، وأنهـمـا لا يخـتلفـان إلا فى درجـة الوضـوح ، وأبان عن ذلك ، وبذلك يكون قد وصل إلى الإجابة عن السؤال الثالث .

وأتاحت المصادفة للشيخ - حىّ بن يقظان - أن يلتقى برجل يدين بدين منزَّل صحيح ، وتفاهم معه فى كل ما وصل إليه عقله ، وما وصل إليه قلبه ؛ فوجد التطابق التام .

ووصل ابن طفيل برسالته اللطيفة الحجم إلى كل ما كان يرجو أن يصل فيه إلى جواب صحيح يُرضى العقل ويُرضى الدين .

وكانت آمال وأمانى فلاسفة الإسلام : الوصول - عن طريق المحاولات العقلية المستمرة - إلى التوفيق بين الدين والفلسفة .

«الفلسفة» فى الإسلام - إذن - تحاول جاهدةً أن تعلن - فى نوع من الدعاية المزخـرفة - أنها تـتفق مع «الدين» ، فيـما أتى به الدين ، وأنها لا تختلف عنه فى مبادئها .

* * *

٤ـ الجو الذى نشأت فيه الفلسفة

وعند كل فيلسوف فى الإسلام ، وعند كل مؤرخ للفلسفة الإسلامية فقرات وفصول بعنوان التوفيق بين الدين والفلسفة . . سواء أكان هذا العنوان ظاهراً أم مستوراً . . فهل نجحت الفلسفة فى هذا أم أخفقت ؟

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال نحب أن نتحدث أولاً عن الجو الذى نشأت فيه الفلسفة :

إنها نشأت عند قدماء اليونان قبل الميلاد . . وكانت اليونان فيما قبل الميلاد بقرون تدين بدين وثنى ، كانوا يؤمنون بمجموعة من الآلهة قابلة للزيادة عن طريق الزواج والتناسل . وهى آلهة تحب وتبغض وتتنازع وتتشاحن ويحاول بعضها أن يعتدى على الأعراض وعلى السلطان ، وهى فى نزاع مستمر . ثم هى تُحابى من البشر مَنْ يقدِّم لها القرابين والأضاحى ، وتخذل من لم يفعل ذلك . وكانت ـ فى مستواها الأخلاقى العام ـ بعيدة عن الكمال والفضيلة ، وكان الإلف والتكرار والتعوُّد يجعل هذا الوضع للآلهة وضعاً عادياً لا يثير نقداً ولا استنكاراً .

بيد أنه نشأ فى القرون (الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد) فى بلاد اليونان مجموعة كثيرة من المفكرين النابهين . . بل ومن العباقرة . . وفكَّروا وتأملوا ونقدوا واستنكروا ، وانفصلوا عن الدين . . يعلنون ذلك فى صخب أو فى هدوء ، وفى كثير من

الأحيان يسرُّون ذلك ويخفونه فى نفوسهم، ولكنهم - على أى وضع كانوا - ألَّفوا مذاهب آمنوا بها واعتقدوها: مذاهب بشرية لم تُؤسَّس على وَحْى، ولم يُنزلها الله على لسان أنبيائه ورسله.

ألَّفوا مذاهب تتصل بالله - سبحانه - وبالآخرة، وبالسلوك الإنسانى الذى يجب أن يلتزمه الإنسان.

إنها مذاهب مؤسَّسة على العقل: عنه تصدر، ومنه تنبع، وعليه تقوم.

إن العقل يُنشئها ويَسير معها خطوة فخطوة حتى يصل بها - فى تدرُّج - إلى غايتها.. إنها مذاهب عقلية.. إنها مذاهب بشرية.. إنها فى المستوى البشرى.

وإذا كانت «أسطورية الدين اليونانى» هى التى دفعت هؤلاء المفكرين على ما أقدموا عليه.. فإن الأمر لم يكن كذلك فيما قبل.

كان الوضع - فيما قبل -: التفرقة بين مجالين من مجالات المعرفة، هما:

١- مجال المعرفة الحسية: وهو مجالٌ آلاتُ المعرفة فيه الحواس، وموضوعه المادة، والعقل يجول فيه مستنبطاً ومستنتجاً، فيؤلِّف فيه ويركِّب، ويعيد تأليفه وتركيبه، ويستخرج قوانينه وقواعده، فتكون الحضارة، ويكون العلم بمفهومه الغربى الحديث أو بمفهومه الكونى المادى: طبيعة وكيمياء وفلكاً.

٢ـ مجال المعرفة الروحية والأخلاقية : وهو مجال ليست الحواس مصدره وليس العقل مُنشئه أو مُبتدعه، وإنما مردُّه إلى الوحى يُنزله الله تعالى على ألسنة من يصطفيهم لحمل الرسالة من خَلْقه، إنه من اختصاص الله تعالى يبيِّنه على ألسنة رسله.

وسار الأمر على هذه الكيفية إلى العهد اليونانى القديم: فخاض الإنسان فى مجال الحس ـ وهو اختصاصه ـ وخاض فى مجال الروح بعقله، وليس للعقل فى مجال الغيب إلا محاولة الفهم: إذ الإنشاء والابتداع فى هذا المجال ليس للإنسان، وليس من اختصاصه.

وجاءت المسيحية فردَّت الأمر إلى حالته الطبيعية: عالم الحس للإنسان أن يفكر فيه ويستنبط، وعالم الروح ليتفهمه الإنسان عن طريق الوحى.

ولكن التيار الفلسفى اليونانى - وقد أصبح سُنَّةً مألوفةً ـ غزا الجو المسيحى وأخذ مكانته المرموقة بين المفكرين الغربيين فنشأ فيهم، ونشأت فى أجوائهم «الفلسفة».

وأخذ فلاسفة الغرب يحاولون التوفيق بين «المسيحية» و«الفلسفة» وكان أبرزهم فى هذا المجال: الفيلسوف « **توما الأكوينى** ».

وإذا قرأت « **ديكارت** » تجده كأنه كان يمشى على الشوك وهو يتفلسف محاولاً ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ مداراة القساوسة وعلماء الدين.

الجو العام الفلسفى - إذن - يعلن فى مجاملة بالغة، أنه يؤيد الدين ولا ينحرف عنه وأنه يقدم إنتاجه ويعرضه على علماء الدين متقبِّلاً ملاحظاتهم التى يُوليها عنايته الفائقة. كان هذا موقف **ديكارت** وغيره.

وجاء الإسلام يَهْدِى للتى هى أَقْوَم، وليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليقود الإنسانية نحو مرضاة الله تعالى. ووضع الأمور فى نصابها مبيِّناً بأسلوب لا لبس فيه أن: العقيدة، ونظام المجتمع، والتشريع، من أمر الله تعالى، وقد شاء - برحمته سبحانه - أن يرسم للإنسانية طريقها المعصوم فى كل ذلك فأرسل الرحمة المهداة، خاتم النبيين محمداً ﷺ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[١].

ولكن «الفلسفة اليونانية» دخلت - على استحياء - فى عهد المنصور، وقوى جناحها فى عهد المأمون، وأصبح فى الأمة الإسلامية «فلاسفة».

* * *

---

(١) سورة الكهف: ١ـ ٥ .

٥ـ سمات الفلسفة

والآن نتساءل :

ـ ما هى السمات العامة للفلسفة ؟ . .

وإنه لا يتأتى أن نحدد ـ فى صورة مقنعة ـ موقف الإسلام من الفلسفة قبل تحديد سماتها العامة ، فما هى هذه السمات ؟ . .

*** السِّمة الأولى :**

وهى أهمها ، وتعتبر كالمنبع الذى عنه تفيض السِّمات الأخرى . . وهى أن الفلسفة لا مقياس لها للتفرقة بين الحق والضلال ، بين الصواب والخطأ ، فإذا اختلف فيلسوفان فى أمر من أمور الفلسفة فإنهما لا يجدان مقياساً يرجعان إليه للحسم بينهما فى موضوع الخلاف .

أما فى العلم فإن المقياس هو « التجربة » فإذا اختلف عالمان فى أمر كونىّ رجعا إلى التجربة وهى تعلن ـ فى صراحة مُشاهَدة ـ خطأ هذا وصواب ذاك .

ما هو ـ فى عالم الفلسفة ـ الأمر الذى يجرى مجرى التجربة فى مجال العلم ؟ . .

ـ لا شىء . .

ما الذى يحسم الخلاف فى عالم الفلسفة ؟ . .

ـ لا شىء . .

ما هو المرجع من أجل الاتفاق فى عالم الفلسفة ؟ . .

ـ لا مرجع .

ولقد شعر الفلاسفة بذلك : فقام اثنان من كبار عباقرة الفلسفة بمحاولة لإيجاد هذا « المقياس » ، وهما « **أرسطو** » فى الماضى ، و« **ديكارت** » فى العصور الحديثة ، ولقد أخفق كل منهما إخفاقاً تاماً كاملاً .

نبدأ الحديث عن **أرسطو** . . ولا ننسى أننا فى عالم الإلهيَّات ، مجال الفلسفة الرئيسى . لقد فكَّر أرسطو وقدَّر ، ثم فكَّر وقدَّر ، وخرج على العالم بما يُسمَّى « **المنطق الأرسطى** » أو « **المنطق الصُّورى** » . وأخذ هذا المنطق فى عالم الفكر الفلسفى مجالاً من الشهرة والعناية لا حَدَّ له ، وأخذ فى الجو الإسلامى شهرة ذائعة الصيت ، وتبنَّاه جميع فلاسفة الإسلام ابتداء من الكندى فى المشرق . . إلى ابن رشد فى المغرب .

ولكن كثيراً من المسلمين ذوى الأصالة فى الفكر الإسلامى أبانوا ـ فى وضوح ـ أن المنطق الأرسطى مُنهار ، وأنه متهافت ، وأن الخلل فى جوهره وأركانه ، وأنه خلل لا يُصلَح .

وكان من هؤلاء **ابن تيمية** الذى كتب كثيراً فى نقد المنطق ونقضه . لقد كتب فى ذلك كتباً ، وكتب فى ذلك فقرات منثورة هنا وهناك فى خلال كتبه الكثيرة وفتاواه المستفيضة .

وممن كتب فى نقد المنطق ونقضه : **ابن حزم** .

والمحدِّثون جميعاً لا يجد المنطق عندهم ترحاباً ولا قبولاً .

وقد كتبنا نحن ننبه على أن المنطق لا يحسم خلافاً ولا يفصل حقاً عن باطل . .

ومما كتبناه في المنهج الحديث ، والمنهج الأرسطي ، ما يلي :

إن المقاييس هي :

(أ) الاستقراء.

(ب) القياس.

أما الاستقراء - وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية - فإنه :

١ - مبنيٌّ كله على الحسِّ : إنه استقراء مُحَسَّات ، إنه تتبُّع جزئيات ، لا تخرج عن نطاق الواقع .

أما المساتير فهو بريء منها كل البراءة ، لأنها لا تدخل في دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحُجُب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ - ثم إن الاستقراء : تام ، وناقص .

والتام - كما يعترف المناطقة - لا غَنَاءَ فيه ، ولا فائدة .

أما الناقص وهو المهم في نظرهم فإنه - في رأيهم أيضاً - ظنيٌّ ، وهو لذلك عُرضة للتغيير ، في كل آونة . وفي « كل معدن يتمدد بالحرارة » قضية من قضايا الاستقراء : إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعادن لم تُستكشف - بعد - بأكملها .

ومن الجائز أن يُكتشف فى الغد معدنٌ لا يتمدد بالحرارة . إنها إذن : قضية مؤقتة ظنية ، تتبرأ من اليقين الفلسفى .

« والعلم ـ كما يقول أحد المفكرين ـ لا يعرف الكلمة الأخيرة فى أىِّ مسألة من مسائله ، وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة .. لها قيمتها ، حتى ينكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيِّرها » .

وهكذا قضايا الاستقراء . . إنها :

١ـ خاصة بالطبيعة ، ولا شأن لها بما وراءها.

٢ـ ظنية ، لا تعرف اليقين.

أما **القياس :**

١ـ فإنه مبنىٌّ على الاستقراء ، إذ هو منطوٍ دائماً على كليَّة ، كليَّة استقرائية ، وما دامت قضايا الاستقراء ظنية ـ كما رأينا ـ وميدانها المُحَسَّات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسَّات .

٢ـ إن المناطقة لا يشترطون فى مقدمات القياس ، أن تكون مسلَّمةً صادقةً فى نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلِّمها المتجادلون فحسب ، وقد تكون ـ كما يقول صاحب « البصائر النصيرية » ـ منكرةً كاذبةً فى نفسها ، وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ . . ما قيمته إذا كان لا يُعَوَّلُ فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة وإن لم تطابق النتيجةُ الواقعَ ؟ . .

ـ ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها ؟ . .

إنك إذا قلت :

الكثير من العلم يؤدى إلي الاستقلال الفردى، وكل ما يؤدى إلى الاستقلال الفردى مُضرٌ بالمجتمع؛ فالكثير من العلم مُضِرٌ بالمجتمع، كان هذا «قياساً صَحيحاً» فى نظر المناطقة .

وإذا قلت :

الكثير من العلم يؤدى إلى التماسك الاجتماعى ، وكل ما يؤدى إلى التماسك الاجتماعى مفيد للمجتمع ؛ فالكثير من العلم مفيد للمجتمع ؛ كان هذا أيضاً «قياساً صحيحاً» عند المناطقة، ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

٣ـ ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى فاسد، ذلك أن العلم بالنتيجة فى نحو قولنا : « محمد إنسان، وكل إنسان ناطق؛ فمحمدٌ ناطق » متوقف على العلم بالكبرى، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة، لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنسانى إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد، ولو كنت فى شك من ذلك لما استطعت تعميم الحكم على جميع أفراد الإنسان .

إذن : تكون الكبرى متوقفة على النتيجة ، وتكون النتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس استدلالاً دورياً فاسداً ، فلا يُعوَّل عليه .

٤ـ وأخيراً . . فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدَّة ، إنها استنتاج مجهول (هو النتيجة) من معلوم (هو المقدِّمات) .

ولكن النتيجة متضمنة فى المقدمات ، إنها ليست مجهولة .

القياس ـ إذن ـ لا يؤدى إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم ، إنه ـ إذا أردت الدقة ـ استنتاج معلوم من معلوم .

تلك هى موازين العقل ـ وهى موازين لا غَنَاءَ فيها ولا جدوى منها فيما يتعلق بالإلهيَّات .

العقل ـ إذن ـ قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر ـ على الخصوص ـ فيما يتعلق بالإلهيَّات .

ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان ، ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق والإلهيَّات . وإذا كانت قد تحدثت فى التشريع فإن التشريع داخل فى نطاق الأخلاق .

أخفق ـ إذن ـ منطق أرسطو ، واستمر الاختلاف بين الفلاسفة كما كان من قبل، واستمر الخلاف حتى بين المناطقة الأرسطيين الكبار منهم والمغمورين ، بل حدث الاختلاف بين تلاميذ أرسطو نفسه ، وهم أتباع مدرسة واحدة هى «المدرسة الأرسطية» .

ومرت العصور، وتوالت القرون . . وجاء« **ديكارت**»، وبدأ ديكارت يتفلسف على استحياء وعلى حذر بالغ، فما كان جو زعماء المسيحية فى الغرب إذ ذاك يوحى بالاطمئنان والسكينة، لقد كان جواً رهيباً يؤاخذ على الظِنَّة، ويَتَكِل على الشُبهة، لا يتحرَّى عدالة، ولا يستشعر رحمة .

وأخذ ديكارت يتحسس طريقه فى حيطة بالغة : مدارياً، مجاملاً، مادحاً، متواضعاً.

وذات يوم أعلن أنه عثر على المنهج المعصوم .

وأنه على أساس من هذا المنهج سيقود الإنسانية إلى« الحق ».

ورأى أن هذا المنهج صالحٌ للكشف عن « الحق » فى الكون ، وفيما وراء الكون، فى الطبيعة وفيما وراء الطبيعة .

وكان من سخرية القدر أن التجربة أظهرت خطأه فى أثناء حياته . .

وأن « الخلاف » استمر ـ حول آرائه ـ فى الإلهيَّات ، وآراء معاصريه، وآراء مَنْ قبله، كما كان الأمر من قبل أن يولد منهجه؛ وأخفق منهج ديكارت كما أخفق ـ من قبل ـ منهج أرسطو .

وبقيت الحقيقة التى لا شك فيها، وهى أن **الفلسفة لا مقياس لها** .

ـ هذه هى السِّمة الأولى .

* **السِّمة الثانية :**

ما دامت الفلسفة لا مقياس لها ؛ فهى - إذن - ظنية ، وإنها ظنية وإن عُجنت **بمنطق أرسطو** الذى أخفق ، وهى ظنية وإن خُبزت **بمنهج ديكارت** الذى لم ينفع فى قليل ولا فى كثير . إنها ظنية لأنه لا يتأتَّى أن تفرِّق فيها - ولا مقياس - بين الحق والضلال . .

وستستمر هكذا إلى الأبد .

* **السِّمة الثالثة :**

ما دام لا سبيل إلى اليقين فى موضوعات الفلسفة فإن من البدهى أن : « **اختلاف الآراء فيها دائم** » .

وهذا هو الواقع حينما يتصفح الإنسان الفكر الفلسفى عبر القرون . إن الاختلاف دائم مستمر منذ أن نشأ ، إنهم يختلفون حتى فى المدرسة الواحدة . وانظر - مثلاً - إلى **مدرسة سقراط** ؛ فستجد تلاميذه يقرُّون بأستاذيته فى احترام بالغ ، وفى تبجيل يشبه التقديس ، فإذا جئت إلى آرائهم فى الإلهيَّات ، أو فى الأخلاق ، فستجد الاختلاف والافتراق . .

الاختلاف والافتراق بينهم وبين أستاذهم . . والاختلاف والافتراق بين بعضهم وبعض . . بل إن الأمر يصل بالشخص الواحد إلى أن يختلف مع نفسه بحسب تطور حياته ، أو اختلاف بيئته ، أو اختلاف ما يقرأ من مصادر ثقافته . .

وكل هذا واضح عبر العصور .

ومن غرائب الأمور أن الفلاسفة يعلمون ذلك علماً يقيناً، ويعلمون أن كل فيلسوف أتى من قبلهم هدم آراء سابقيه جميعاً: إنه لم يعترف بوصول أحدهم للحق، إنه يُخطِّئهم جميعاً، ولو لم يكن الأمر كذلك لأخذ بآرائهم، واكتفى بما حبَّروه، أو بما أنشأه أحدهم من قبل.

ولكنه مع علمه بأن الفلسفة دائماً إلى نقد ونقض، فإنه لا يأبه بهذه المعرفة ويقيم مذهبه على أنقاض مذاهب سابقيه، فيأتي من بعده ويهدمه ويقيم مذهباً مآله السقوط.. وهكذا دواليك.

* السِّمة الرابعة:

وما دام الاختلاف مستمراً فإن المسائل - التي هي موضوع الفلسفة - تستمر هي هي.

« **إن مسائل الفلسفة لم تتغير على مَرِّ الدهور** ».

- ما هي مسائل الفلسفة؟.. إنها مسائل تتعلق بـ:

الله سبحانه، وصفاته، وصلته بالعالم خَلْقاً وتصريفاً، وصلته بالإنسان قرباً وتوجيهاً، والبعث وكيفيته..

والخُلُق الكريم الذي يُمثِّل الفضيلة والكمال..

والخُلُق السَّيِّئ الذي يُمثِّل الشر والفساد..

والنبوَّة، والصلة بالله عن طريق الوحي - إثباتاً وإنكاراً - ثم: هل المعرفة ممكنة؟

وفى كل هذه الموضوعات الكبرى - وغيرها مما يتصل بها - اختلف الفلاسفة . . وما زالوا .

واستمرت هذه المسائل - على مدى سبعة وعشرين قرناً تقريباً - مثار بحث وجدل ، إلى الآن لم يصل الفلاسفة فى واحدة منها إلى اليقين ، ولم توضع واحدة منها موضع الاتفاق .

*** السِّمة الخامسة :**

إن الاختلاف فى مسائل الفلسفة ليس اختلافاً فى الإيجاب - فحسب - وذلك أنه قد يجوز أن يكون لمسألة ما عدة حلول كلها إيجابية . . وليس اختلافاً فى السلب - فحسب - وذلك أنه قد يجوز أن يكون لمسألة واحدة عدة حلول كلها سلبية .

كَلاَّ . . إن الخلاف عام فى الإيجاب وفى السلب ، وإنه ليصل إلى الإنكار المطلق وإلى الإثبات المطلق فى كل مسألة ، وإنه ليصل بك أحياناً إلى طريق مسدود .

- أتحب أن تعرف شيئاً من ذلك ؟ . .

إن الأستاذ « **ألبير ريفو** » يقول فى كتابه « الفلسفة اليونانية » :

« أما عن العقل فإن سلسلة الآراء الرواقية المتتالية نفسها أثبتت بسهولة أنه ليس له قُدرة مطلقة حازمة :

١ - فهل فى إمكاننا أن نعرف عن حَبَّات من القمح متى تكفُّ عن تكوين أكوام ؟ . .

٢- وإلى أى حَدٍّ نثق فى اعتراف الكذَّاب الذى يعترف بأنه كذَّاب ؟ . .

٣- وعندما نقرر أن دليلاً منطقياً هو من الصحة إلى الحد المقنع، ألَا يتعيَّن علينا أن نقيم دليلاً آخر على صحة حكمنا بأنه صحيح، ثم على الحكم الأخير . . وهكذا إلى ما لا نهاية ؟ . .

٤- وكيف يمكن التمييز بين الفكرة الجليَّة الواضحة وسواها ؟

٥ - على أن الصور التى نراها فى الأحلام تُفْرَضُ علينا بنفس القوة المقنعة التى لصور اليقظة، فالوحش الذى يطاردنا فى الأحلام ليس أقل ترويعاً لنا من وحش الغابة ؟ . .

٦- ثم، إذا نظرنا إلى المجانين : ألَا نجد لديهم - أيضاً - إدراكاً واعياً جليّاً ؟ . .

٧- وعندما نجد أنفسنا - بالصدفة - أمام شيئين متشابهين تماماً كورقتى شجرة، أو بيضتين، أو توأمين، فأى وسيلة مصطنعة تمكِّننا من تمييز أحدهما عن الآخر ؟ . .

٨ - وحتى فى العلوم الرياضية :

- هل يمكن أن نجد بين قضاياها ما هو «جلىٌّ» بحيث يضطر الشعور إلى التسليم بصحته؟ ».

ومع ذلك فإنه إذا كان ذلك يُحتمل فى الحياة العقلية البحتة، فإنه لا يُحتمل فى الحياة التى تتصل بالسلوك الملحِّ الذى تحتاج الحياة العملية إلى الفصل فيه سريعاً . . فما موقفنا من هذا النوع ؟ . . وما موقف الفلسفة منه ؟ . .

ـ إنها تكتفى فى الحياة العملية بالترجيح . .

يقول **كاريناد** :

« ومع ذلك فلابد لكى نحيا حياة عملية : من وجود مُعادِل يساوى ما هو قاطع وجازم » . .

ثم يقول :

إننا نستطيع أن نجد ذلك المعادل فى « الرجحانية» . . إن إدراكنا على وجه الترجيح يمكن أن يسمح لنا بالحكم على الأشياء فى الأمور العملية بطريقة وضعية .

وتصل بك الفلسفة أحياناً إلى معقولات يكذِّبها الواقع ، أو إلى واقع يكذِّبه المنطق العقلى . . مع أنه واقع مُشاهَد .

ـ أتحب أن تتسلَّى بشىء من ذلك ؟ . .

إن الأستاذ « **ألبير ريفو** » يقول :

« إن التغيُّر يحدث فى المكان أو الزمان ، وإذا تصوَّرنا المكان قابلاً للتجزئة إلى ما لا نهاية ؛ فإن المتحرك لن يبلغ أبداً غاية سيره مادام يلزمه للوصول إليها أن يقطع أولاً نصف المسافة ثم نصف النصف ، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية .

ولن يبلغ أبداً « أشيل » ذو القدمين السريعتين ، السلحفاةَ ، إذا كانت تسبقه ـ ولو بمسافة ضئيلة ـ ذلك أنه بينما يجتاز نصف هذه المسافة ، تسبقه هى أيضاً ؛ بحيث يجب عليه بدوره أن يقطع نصفها ، بينما تتقدم هى من جديد .

وهناك حجة أخرى تنكر إمكان تكوين الكل من أجزاء ، فإن

كومة من القمح تُحْدثُ عندما تُرَشُّ على الأرض صوتاً يُسمع على بعد، ومع ذلك فَنحن لا نسمع الصوت الذى تُحدثه حبَّة القمح الواحدة وهى تسقط ».

وإذا كان الأستاذ « ألبير ريفو » موجزاً مركّزاً لا يذكر المسائل فى سهولة ويسر ، فإن صاحب «قصة الفلسفة» بسطها فى شىء من الوضوح . . فيقول متحدثاً عن **زينون الأيلى**:

*** الدليل على بطلان الكثرة** :

إن كانت الكثرة حقيقة واقعة ـ ونعنى بالكثرة أن الكون ليس شيئاً واحداً بل وحدات كثيرة متراكمة ـ كان الكون لا متناهياً فى الكبر ، ولا متناهياً فى الصغر، لأنه مُؤلَّف من وحدات كما فرضتُ أولاً . . ولابد أن تبلغ تلك «الوحدات» من الصغر حَدَّ اللانهاية، بحيث لا يكون لها حجم، لأنه إن كان للوحدة حجم سقطت عنها صفة الوحدة وأصبحت قابلة للانقسام إلى وحدات أصغر منها، فإذا سلّمنا بأن كل وحدة على انفراد لا حجم لها لزم أن يكون الكون الذى يتكون منها لا حجم له كذلك، لأنه حاصل جمعها .

وكذلك يكون الكون لا متناهياً فى الكبر ؛ لأن له جرْماً لا شك فيه، وكل جرْم قابل للانقسام إلى جزئيات لا نهايَة لعددها ، ومهما بلغت َتلك «الجزئيات» من الصغر فهى إذا ضُربت فى عدد لا نهائى كان الناتج كوناً عظيماً يمتد إلى ما لا نهاية .

إذن : ففرض الكثرة يؤدى إلى نتيجتين متناقضتين لا يسلِّم بهما معاً منطقٌ سليمٌ، فلم يعد أمامك من سبيل إلا أن تنكر إنكاراً باتّاً «الكثرة» ، وأن تسلِّم بأن الكون كله «شيء واحد» لا يقبل التجزئة، وأن هذه الأجزاء - التى تراها متفرقة - باطلةٌ ليس لها وجود !! .

* الدليل على بطلان الحركة :

١- إذا أردت أن تقطع مسافةً ما، فستقطع نصفها الأول، ويبقى أمامك نصفها الثانى، ثم ستقطع نصف هذا النصف، ويبقى نصفه الآخر، وهكذا ستظل تقطع نصفاً ويبقى نصف إلى ما لا نهاية . .

إذن : فلن تصل إلى غايتك المقصودة إلى الأبد .

٢- تَسَابَقَ رجلٌ وسلحفاة، فهبْ أن السلحفاة تقدمت عشرة أمتار قبل أن يبدأ الرجل، نظراً لبطء سيرها، وكانت سرعة الرجل عشرة أمثال السلحفاة، فلما بدأ الرجل وقطع عشرةَ الأمتار التى تفصله عن السلحفاة وجد أنها قد تقدمت متراً (أى : عُشْرَ المسافة التى قطعها هو) فلما قطع هذا المتر، تكون السلحفاة تقدمت عُشْرَ المتر، فإذا قطع هذا العشر ، تكون قد تقدمت جزءاً من مائة جزء من المتر، وهكذا يظلاَّن إلى ما لا نهاية . . فلو ظل المتسابقان إلى آخر الدهر فلن يلحق الرجل السلحفاة !! . .

٣- إذا انطلق سهمٌ فى الهواء، فلابد أن يكون فى أىِّ لحظة

زمنيـة ثابتـاً فى مكان معين؛ لأنه لا يجـوز أن يكون فى اللحظة الواحدة فى مكانين مختلفين، ولكن إذا كان السهم فى كل جزء ساكناً فى مكان بعينه لزم أن يكون فى مجموع الفترة الزمنية ساكناً كذلك، لأن استمرار السكون يُنتج سكوناً ولا يولِّد حركة.

من هذه الأمثلة الثلاثة يتضح أن «الحركة مستحيلة» وإن خُيِّلَ لنا أنها حقيقة واقعة؛ لأنك - كما ترى - إن فرضت حدوث الحركة تورطت فى سلسلة من «المتناقضات» لا تستقيم مع العقل والمنطق.

وإن الفكر الفلسفى ليصل بك - أحياناً - إلى إنكار السماء والأرض، وما بين السماء والأرض .. ويقول لك: ليس فى الوجود - يقيناً - غيرُك أنت وحدك.

*** آخر السِّمات :**

أما السِّمة الأخيرة فهى سمة تؤدى إليها - لا مناصَ - السِّمات السابقة.

وإذا كانت السِّمات السابقة يسلِّم كل منها إلى الآخر، فإنها جميعاً تتكاتف لتؤدى إلى هذه السِّمة الأخيرة.

- هذه السِّمة الأخيرة هى أن: « **الفلسفة لا رأى لها** ».

وقد تكون هذه السِّمة مفاجأة لبعض الناس، كيف يتأتَّى أن تكون هذه الفلسفة التى ملأت الدنيا صياحاً - منذ أن نشأت - ولم تكفّ - منذ أن نشأت حتى الآن - عن الصياح، لا رأى لها؟!..

والأمر أيسر من أن يحتاج إلى استفاضة:

أما **أولاً**: فلأن « **الفلسفة لا رأى لها** » نتيجة واضحة لكل ما قدَّمنا .

وأما **ثانياً**: فخذ أىَّ مسألة من مسائل الفلسفة فستجد فيها الآراء التى تُنْكِر . . والآراء التى تُثْبِت . . إنك ترى الرفض والقبول فى كل أمر .

والرفض فلسفة ، والقبول فلسفة . .

وقد يكون الرأى توقفاً عن الرفض والقبول ؛ وهو فلسفة . . وقد يكون شكّاً فى الرفض وشكّاً فى القبول فى آنٍ واحد ؛ وهو أيضاً فلسفة . .

والشك إما أن يكون شكّاً فى قيمة الآراء التى تعرض : نفياً ، أو إثباتاً . .

وإما أن يكون شكّاً فى قيمة وسيلة المعرفة نفسها ، وهى الحواس والعقل . . وكل ذلك فلسفة فى كل مسألة .

وإذا تساءلت ـ وأنت على علم بالجو الفلسفى ، جوِّ المتاهات والوهم ـ :

ـ ما الرأى الفلسفى فى هذه المسألة أو تلك ؟ . .

فستجد كل ما قدَّمناه ماثلاً أمامك يثبت لك ـ بما لا مريةَ فيه ـ أنه : « **لا رأى للفلسفة** » .

* * *

٦ـ وقبل أن نخلص إلى الخاتمة نذكر أمراً فى منهج الفكر الفلسفى فيه عظة وفيه عبرة

إن محاورة « فيدون » لأفلاطون لها أهميتها لأكثر من وجه، منها أنها :

١ ـ محاورة يدور البحث فيها حول خلود النفس .

٢ـ وهى محاورة لا تتعارض فيها أهداف المناقشين ، وإنما تتحد وتتفق، ويحب المناقشون أن يصلوا فيها إلى نتيجة محببة إلى نفوسهم، وهى أن «**النفس خالدة** » .

٣ـ إن الذين يدور بينهم الحوار فلاسفة من الذين لهم وزنهم واعتبارهم . . وأحدهم يسمونه « **أبا الفلسفة** » . . ويسمونه «**أبا الفلاسفة** » .

٤ـ المتحاورون ليسوا من مدرسة واحدة . . وإنما هم من مدرستين مختلفتين : هما مدرسة **سقراط** ومدرسة **فيثاغورس** ، وهما وإن كانتا متقاربتين فإنه ما من شك فى أن جو سقراط العقلى يختلف عن جو فيثاغورس الروحى .

ولهذا الاختلاف فإن اتفاقهما على غاية واحدة «**إثبات خلود الروح**» . . ومحاولتهما الاستدلال عليها ، له أهميته الخاصة .

٥ـ بيد أن الأمر الأساسى المهم الذى من أجله نتحدث فى هذا الموضوع هو اتفاق المدرستين على أن «**الوحى**» فيما يتعلق بما بعد الطبيعة هو السفينة الأمينة المتينة، وأن «**العقل**» فى مجال الإلهيَّات، إنْ هو إلا عبارة عن لوح من الخشب، إذا قابلته أو إذا وازنته بالوحى. إن الوحى سفينة والعقل لوح من خشب.

لقد كان الحوار يدور بين «**سقراط**» واثنين من «**الفيثاغوريين**» هما «**سيمياس**» و«**قابس**» .. وهما من كبار فلاسفة المدرسة **الفيثاغورية**.

وأخذ الجميع يجهدون ذهنهم فى البرهنة على خلود النفس، ويقيمون أدلة، وتنقسم بعض أدلتهم إلى فروع، ثم:

«يسكت **سقراط**، ويسكت الجميع .. وبعد هنيهة يقول **سيمياس**:

إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً فى هذه الحياة ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل، فيجب:

* إما الاستيثاق من الحق ..

* وإما ـ إن امتنع ذلك ـ استكشاف الدليل الأقوى والتذرُّع به فى اجتياز الحياة ..

كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح خشب، ما دام لا سبيل لنا إلى مركب أمتن وآمن، أعنى: إلى وحى إلهى» [١].

---

(١) «تاريخ الفلسفة اليونانية» ليوسف كرم.

وبعد ذلك يعودون إلى البحث من جديد حتى :

يقتنع **قابس**، ويعلن **سيمياس** أنه مقتنع أيضاً، إلا أن شعوره المزدوج بعظم المسألة، وبالضعف البشرى: يضطره إلى بعض التحفظ بإزاء هذه الأدلة - على وجاهتها.

فيسلِّم له **سقراط** بحقه فى هذا التحفظ، ويزيد قائلاً :

- بل إن المقدمات أنفسها مفتقرة إلى بحث.

إن هناك مجرد الإلهيَّات، وهناك البحر المائى.

وكما أن للبحر المائى آلة عبور هى (السفينة)، فإن لبحر الإلهيَّات آلة عبور هى (الوحى).. فإذا استعمل الإنسان العقل فى عبور بحر الإلهيَّات فإنه يكون كإنسان يستعمل لوحاً من خشب فى عبور البحر المائى.

ولكن المضطر - حيث لا وحى - يستمسك بلوح الخشب؛ كما يقول **سيمياس**..

- ما دام لا سبيل إلى مركب أمتن وآمن، أعنى : إلى « وحى إلهى ».

* * *

٧ـ خاتمة فى الفلسفة

إن هذه الخاتمة تجربة شخصية . .

ولعل القارئ الكريم يسمح بأن أتحدث عن الجو الذى عشته فى بواكير حياتى الفلسفية :

لقد كان ذلك لأول عهدى بجامعة باريس حينما ذهبت إلى فرنسا للدراسة .

أحب أن أصف الجو الذى عشته، وكيف تصرفت - بتوفيق الله ـ فى أثنائه .

دخلت الجامعة، وبدأت الدراسة فى علم الاجتماع، وعلم النفس، ومادة الأخلاق، وتاريخ الأديان .

وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود، أو الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود .

وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدد، هو : أنها « **علوم مجتمع** » ..

أى أنها لا تتقيد بوحى السماء، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلهى . . فهى تدرس موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية، وظواهر إنسانية .

وبدأنا فى الدراسة نسمع مختلف الآراء فى نشأة الدين، ومختلف الآراء فى تفسير النبوَّة، وينتهى الأمر برأى الأستاذ فى الموضوع .

وليس فى هذه الآراء ـ على اختلافها وتعددها ـ ما يتجه إلى أن الدين وحى من السماء، أو أن النبى موصول الأسباب بالسماء ، وإذا انتظرنا من الأستاذ أن يصحح الوضع ، فيدلى فى النهاية برأيه مثبتاً الإلوهية والنبوَّة هادماً للآراء الأخرى واصفاً لها بأنها ضلال ! . .

إذا انتظرنا ذلك منه فإننا نكون واهمين، فإنه واحد من هؤلاء العشرات من الأساتذة فى هذه المواد وما شابهها المنغمسين فى تيار المادية .

لقد فسَّرت الجامعات الأوربية العلم على أنه القواعد التى تقوم على التجربة والملاحظة، والتزمت أن تفسر وأن تشرح علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وجميع الظواهر فى الآفاق ، وفى الأنفس، على هذا الأساس . . والتزمت ذلك أيضاً فى تاريخ الأديان .

هذه المعلومات بالذات وفروعها تتكاتف لتقود الإنسان متعاونة متساندة إلى الإلحاد .

إن للدين ـ فيما يزعمون ـ نشأة إنسانية اجتماعية، وإن للخُلق ـ فيما يروون ـ نشأة إنسانية اجتماعية، وقد تَواضَعَ الناس على سلوك معين سمَّوه «فضيلة» وعلى سلوك آخر سمَّوه «رذيلة» .

دراسة الدين والأخلاق ـ إذن ـ تتجه إلى النشأة ، والمظاهر، وعوامل التطور وظواهر التطور . . وليس للسماء فى الدراسة من نصيب، اللهمَّ إلا الوصف لظاهرة نشأت فى المجتمع .

وكل الظواهر والمظاهر فى هذه الدراسات اعتبارية ، نسبية ، متغيرة متبدلة لا تثبت على حال ، ولا تستقر على وضع ، لأنها فى كل يوم تتبدل حالاً بحال .

وهذه « الأفكار » تتكرر فى هذه المواد . . تسمعها فى علم الاجتماع ، وتسمعها فى علم النفس ، وتسمعها فى دراسة مادة الأخلاق ، وتسمعها فى دراسة تاريخ الأديان ، وتسمعها فى دراسة العلوم المتفرعة من كل ذلك .

والشاب الذى انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه ، فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة ، والمُثل العليا التى يقررها الدين ، وتقررها الأخلاق ، إذا كان الأمر كذلك فإن الطالب الذى يعيش فى أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومُثله وقيمه ؛ ينتهى به الأمر ـ فى الأغلب الأعمِّ من الحالات ـ بأن تنهار هذه القيم فى شعوره .

ومن هنا كانت الظاهرة التى تجدها فى طلبة الجامعات فى أوربا من الاستخفاف بكثير من العقائد ، وبكثير من القيم ، وينتهى الطالب بالإلحاد ، أو على أقل تقدير : بالإيمان الكامن الذى لا فاعلية له ، ولا تأثير له فى سلوك الإنسان .

وكنت ـ من غير شك ـ أضيق بكل ما يجرى فى هذه الدراسات . .

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ألهمنى التفكير فى قيمة آراء الأساتذة أنفسهم فى هذه المواد .

وبدأت أفصل بين عالمين من المعرفة : عالم الماديات ؛ كالطب والطبيعة والكيمياء ، وهذه أمور تحكمها التجربة ولا تتعارض مع الدين، ولا اختلاف فيها . . وعالم التفكير المجرد فى الدين والأخلاق والمجتمع .

وأخذت أدرس ـ فى أناة ـ هذا الجانب الأخير ، من الزاوية التاريخية، فوجدت أنه منذ أن بدأ التفكير بدأ فى اللحظة الأولى الاختلاف فيه ، وبدأ كل زعيم من زعمائه ينتقد الآخرين فى عصره، وكل مفكرى عصر ينتقدون المفكرين فى العصر السابق عليه. . . وهكذا الأمر .

وما من شك أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرِّسون لنا ينتقد بعضُهم بعضاً فى آرائهم، ويُخطِّئ بعضُهم بعضاً، كما ينتقدون السابقين عليهم ويخطِّئونهم، وسيصنع مَنْ بعدهم صنيعهم فيوجِّهون إليهم النقد ويخطِّئونهم. . . وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد أخذ «**دوركايم**» اليهودى يعمل بمعاول هدَّامة فى كل القيم والمفاهيم الدينية والأخلاقية، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودى «**ليفى بروهل**» ينهج منهجه ، ويسير على طريقه فى علم الاجتماع وفى علم الأخلاق، وكتاب ليفى بروهل «الأخلاق وعلم العادات» مثل واضح لهذا النوع من هدم القيم، ومحاولة القضاء على كل المُثل .

فكرت ـ إذن ـ فى اختلاف الآراء، أو فى هدم بعضها البعض فى مواجهة كل ما يقوله الأساتذة. وكنت أقول فى نفسى ـ فى مواجهة كل أستاذ ـ سيهدمك المعاصرون لك، وسيهدمك الذين يأتون من بعدك.

ولكنى فى مواجهة كل هذه الآراء الإلحادية، كنت أتشبَّث بيقين لا شك فيه.. كنت أقول فى نفسى: إذا كانت الأخلاق نسبيَّة، فهل سيأتى الزمن الذى نعتقد فيه أن الصدق رذيلة أو أن الشهامة شرٌّ، أو أن الشجاعة سوء، أو أن العفَّة جريمة.. أو أن كذا، أو كذا..

ثم أعود إلى نفسى فأقول: كلاَّ..

وأتساءل من جديد فى مجال العقائد: هل سيأتى اليوم الذى لا نقول فيه بوحدانية الله؟.. أو لا نقول فيه بإرادته وعلمه؟

وأعود إلى نفسى وأقول: كلاَّ..

كنت أحاول ـ دائماً ـ أن أردِّد أن هؤلاء القوم يسيرون فى طرق لا تنتهى إلى غاية..

ـ ما هدفهم من ذلك؟..

وما كنت أجد الإجابة عن هذا السؤال آنئذ، لكنى عرفت فيما بعد أن هذا هو المنهج اليهودى الذى رسموه بعد تفكير طويل، والتزموا القيام به، بكل الوسائل، أو بكل الطرق.. وهو منهج التشكيك فى القيم والمثل والعقائد والأخلاق.

يستخدمون ـ هذا المنهج ـ فى المجالات المختلفة ؛ لإفساد المجتمعات وتحلُّلها أخلاقياً ودينياً، ويضيفون إليه العمل على إثارة العمال على أصحاب رؤوس الأموال وعلى إيجاد الضغائن والفتن بين مختلف فئات الشعوب، والثمرة التى يعملون دائبين على الوصول إليها : أن يكون المجتمع شَاكّاً مليئاً بالفتن، وذلك سبيلهم إلى السيطرة .

إن اليهود يهدفون من وراء كل ذلك إلى السيطرة على العالم، إنهم يحطمون القيم والمُثل حتى لا يكون فى المجتمعات قوة من عقائد، أو قوة من خُلق، ومن أجل ذلك تكاتفوا على أن تكون لهم الكلمة الأولى فى الجامعات فى علم الاجتماع، وفى علم النفس، وفى مادة الأخلاق، وفى تاريخ الأديان، ولم يكن من السهل علىَّ فى أثناء هذه الدراسة الاستمساك الواثق بالقيم والمُثل التى نشأت عليها، ولولا عون من الله سبحانه، وتوفيق منه، ولولا لطف الله لصرت كواحد من هؤلاء الألوف الذين يدرسون فى الجامعات الأوربية، ثم يخرجون منها وقد تحطمت فى نفوسهم المُثل الدينية الكريمة .

وانتهيت من هذه الدراسة، ثم كانت المرحلة التالية هى مرحلة «الدكتوراه» . .

وبعد تجارب هنا وهناك فى مجالات مختلفة من الموضوعات،

وبعد تردد بين هذا الموضوع أو ذاك : هدانى الله ـ وله الحمد والمنَّة ـ إلى موضوع التصوف الإسلامى . ولم يكن ذلك مصادفة ، وإنما هى هداية وتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، وهى عناية أعجز عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها . وانغمست فى العنصر الأساسى فى موضوع « الرسالة » . . وهو دراسة « **الحارث بن أسد المحاسبى**» .

انغمست فى جو مجموعة من « المخطوطات » لهذا العالم الكبير ، المستنير ، ورأيت أنه قد مرت به ـ هو الآخر ـ فترة من الضيق ؛ لاختلاف الآراء وتفرُّقها ، والحيرة فى أيِّها الحق وأيِّها الصواب . . ثم هداه الله سبحانه إلى الطريق الأقوم .

ووجدت فى جو الحارث بن أسد المحاسبى الهدوء النفسى ، أو الطمأنينة الروحية ، ولكنه هدوء اليقين ، وطمأنينة الثقة بما يعلم . .

فقد ألقى بنفسه فى معترك المشاكل التى يثيرها المبتدعون ، والمنحرفون . . وأخذ يصارع مناقشاً ، ومجادلاً ، وهادياً ، ومرشداً ، متخذاً الأساس الأصيل ، والمصدر الأول : القرآن والسُّنَّة ، متخذاً ذلك مقياساً وحاكماً متحكماً فى كل ما يُقال أو يُفعل .

وانتهيت من دراسة « الدكتوراه » وأنا أشعر شعوراً واضحاً بمنهج المسلم فى الحياة ، وهو منهج : « الاتِّباع » .

إن **ابن مسعود** ﷺ يقول كلمة موجزة عن هذا المنهج كأنها إعجاز من الإعجاز، إنه يقول :

« **اتَّبِعوا ولا تَبتدعوا فقدْ كُفيتم** » .

وهى كلمة حق وصدق ، ثرية بالمعانى الطويلة العريضة ، يبرهن آخرها على أولها ، والنهى فى وسطها يبرهن عليه أيضاً آخرها أى : اتَّبعوا فقد كُفيتم ، والكافى هو الله سبحانه وتعالى الذى أوحى المبادئ ، والأصول ، والقواعد ، وطَبَّق رسول الله ﷺ كل ذلك وبيَّنه ، فكان تطبيقه مقياساً وبياناً ومرجعاً يرجع إليه المختلفون .

« **ولا تَبتدعوا فقدْ كُفيتم** » : إن الذى يبتدع هو من لا كفاية له ، ولكن الله سبحانه وتعالى بعد أن أكمل الدين وأتمَّ النعمة ، فليس هناك من مجال ولا من حاجة إلى الابتداع .

لقد كفانا الله ورسوله ﷺ كل ما أهمَّنا من أمر الدين .

وبعد أن وَقَرَ هذا المنهج فى شعورى واستيقنته نفسى أخذت أدعو إليه ، كاتباً ومحاضراً ومدرِّساً ، ثم أخرجت فيه كتاباً خاصاً هو كتاب « **التوحيد الخالص** » أو « **الإسلام والعقل** » .

وما فرحت بظهور كتاب من كتبى مثل فرحى يوم ظهر هذا الكتاب ، لأنه هو خلاصة تجربتى فى حياتى الفكرية .

وكل ما كتبته عن التصوف ، وعن الشخصيات الصوفية ، فإنما يسير فى فلك هذا المنهج : منهج الاتِّباع .

وهذا المنهج يفترض :

١ـ مقاومة الغزو الفكرى فى العقائد :

والغزو الفكرى له مجالات مختلفة : هناك الغزو الفكرى فى العقائد ؛ يتمثل فى كل هذا التراث الضخم الذى نُقل إلى اللغة العربية ؛ فيما يتعلق بما وراء الطبيعة . . وهو تراث مختلف متعارض، بل ومتناقض، وهو نتاج بشرى بكل ما يتسم به النتاج البشرى من خطأ وضلال .

٢ـ والغزو الفكرى فى نظام المجتمع :

وهو الذى حاول أن يفرض علينا نظام المجتمعات الأوربية . .

وإذا نحن سرنا فى تياره فإننا نصبح ولا شخصية لنا ، ولا ذاتية ، ونصبح وقد فقدنا رسالتنا التى كُلِّفنا بتبليغها للناس ونشرها ، وهى رسالة الإسلام ؛ التى من أجلها كانت الأمة الإسلامية ، وبدونها تصبح الأمة الإسلامية ولا مبرِّر لوجودها .

٣ـ والغزو الفكرى فى مجال التشريع :

وهذا الغزو الفكرى فى مجال التشريع توجد أسسه وأصوله بصورة مشروعة فى مختلف الأقطار العربية ممثلة فى كليَّات الحقوق . . التى تنفق عليها الدولة وتعتمد شهاداتها .

وكليَّات الحقوق هذه دراستها غزو فكرى ، واستعمار فكرى ، ودراستها أثر من آثار « الاستعمار» التى لم تزل . . بعد أن زال الاستعمار .

وإذا كانت الأمم الواعية تحاول جاهدة أن تتخلص من وصمة الاستعمار بما فيها من شرور ورجس وآثام، فإن الكثير من الدول العربية لم تحاول أن تتخلص من وصمة «الاستعمار» الصارخة الواضحة الممثلة فى هذه الكليَّات.

إن هذه الكليَّات تخصِّص عشرين ساعة فى الأسبوع للقوانين الأوربية أى: للفكر الأوربى فى التشريع، وتفرض على الطالب أن يذاكره ويستوعبه ويحفظه ويتمثله وينجح فيه فى الامتحان.

أى أنها تفرض على الطالب أن يستعمر فكره الأوربيُّون فى مجال التشريع، وأن يلغى ذاتيته الإسلامية فى هذا المجال، وأن يكون تابعاً للأوربيين فى هذا المجال، مقلِّداً لهم تجرُّه عجلتهم، مستسلماً لغزوهم.

وبينما تخصِّص هذه الكليات عشرين ساعة - أسبوعياً - للفكر الأوربى فى التشريع، إذا بها تخصِّص ساعتين فقط للتشريع الإسلامى.

ولو أن هذه الكليَّات فى فرنسا أو فى انجلترا لما فعلت أكثر من ذلك..

«منهج الاتِّباع» - إذن - يقتضينا أن ننظر فى جدٍّ فى أمر هذه الكليَّات من أجل أن تُمَثِّلَ الوطنية والإسلامية والعَروبة.

وبعد :

فإن «منهج الاتِّباع» هو الخلاصة الجوهرية لتجاربى الخاصة بالطريق الذى ينبغى أن يسلكه المسلم فى حياته . . وإذا سار فيه المسلم فرداً ، أو سار فيه المجتمَع مجتمِعاً ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يكتب له الهدوء والطمأنينة والسعادة ، لأنه يكون فى جوٍّ ربَّانىٍّ ملىء برعاية الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعنايته . .

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] .

* * *

---

(١) سورة آل عمران : ١٠١ .

الأساس الذى تنبثق منه الأخلاق فى الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم (*)

الحمد لله رب العالمين . . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين . .

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(1) .

أيها الإخوة المؤمنون :

كل عام وأنتم بخير، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيد هذه الذكرى المباركة وقد اتحدت كلمة زعماء المسلمين والعرب ، وقد انتصر الإسلام، وقد استخلصنا « بيت المقدس » ، وقد طهّرنا أرضنا الإسلامية من رجس الصهيونية .

أيها الإخوة المؤمنون:

إننى أشكر لجمعية مسجد سيدى جابر هذا النشاط الذى تقوم به . . وما من شك فى أن خيرْ النشاط الذى تقوم به : تحفيظ القرآن، ودروس التقوية، وغير ذلك من الأنشطة التى تقوم بها ؛

---

* هذه محاضرة للإمام عبد الحليم محمود ، أُلقيت فى مسجد سيدى جابر بالإسكندرية فى يوم ١٧/ ٣/ ١٩٧٧م، وقد نقلناها بأسلوبها ولفظها.

(١) سورة البقرة: ٢٨٦ .

فجزاها الله خير ما يجزى العاملين للإسلام ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يبارك فيها، وأن يبارك فى المشرفين عليها.

فيما يتعلق بأخلاقيات الإسلام: إنه موضوع جليل من أهم الموضوعات، ومن الممكن أن يتحدث الإنسان عن زوايا كثيرة من أخلاقيات الإسلام..

«الإسلام» أخلاقيات لا تكاد تنتهى.. الصبر.. الحِلْم.. الإنصاف.. العدل.. الإحسان... إلى غير ذلك من هذه النواحى الكثيرة التى يتحدث فيها المتحدثون، والتى استفاضت فيها السُّنَّة واستفاض فيها القرآن... وآيات الأخلاق فى القرآن أكثر من آيات التشريع وأكثر من آيات العقيدة نفسها.

ومن آيات الأخلاق فى القرآن ما يتضمنها أيضاً القصص الذى يتحدث عن الأنبياء..

وأحب فى هذه الليلة أن أتحدث عن الأساس الذى تنبثق منه الأخلاق فى الإسلام.

ـ ما الأساس الأول .. الأصيل .. الذى تنبثق منه الأخلاق الإسلامية ؟ ..

هذا الأساس يستمد كيانه من كلمة «الإسلام» نفسها.. أى أن هذه المحاضرة، فى هذه الليلة، تكاد تكون مقصورة على شرح كلمة «الإسلام».. فإننا إذا ما شرحنا كلمة «الإسلام» عرفنا

الأساس الذى تقوم عليه الأخلاق الإسلامية، فضلاً عن الأساس الذى تقوم عليه العقيدة ويقوم عليه التشريع .

فيما يتعلق بكلمة« **الإسلام**» . . هذه الكلمة الإلهية الربانية . .

ـ ما مفهومها ؟.. ما معناها ؟.

إن علماء اللغة حينما يتحدثون عن كلمة الإسلام، يقولون : إن المسلم هو من خلصت عبادته ، وخلص سلوكه لله سبحانه وتعالى .

وإذا جئنا إلى المعنى الذى فسَّرها به رسول الله ﷺ حينما سُئل عن الإسلام . . فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

« **الإسْلاَمُ أنْ يُسْلِمَ للَّهِ قَلْبُكَ ، وأنْ يَسْلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ ويَدِكَ** » .

ـ هذا هو الإسلام فى تعريف رسول الله ﷺ . .

هذا المعنى . . « **أن يُسْلِمَ للَّه قلبُك** » . . تستفيض الأحاديث النبوية فى شرحه وتستفيض الآيات القرآنية فى شرحه . . إنهم يقولون مثلاً : أن يسلم لله قلبك فى العبادة والاستعانة ﴿**إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[1] . . لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك . . ومن شرحها ما قاله النبى ﷺ لابن عباس، وقد كان ـ آنذاك ـ غلاماً :

(١) سورة الفاتحة : ٥ .

« يَاغُلاَمُ ، احْـفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْـكَ ، احْفَظ اللَّهَ تَجِـدْهُ تجَاهَكَ ، وإذَا سَأَلْتَ فَـاسْأَلِ اللَّهَ ، وإذَا اسْتَـعَنْتَ فَاسْتَـعِنْ بِاللَّه ، واعْلَمْ أنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَ أهْلُ السَّمَـوَاتِ والأرْضِ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىءٍ ؛ مَا نَفَـعُوكَ إلاَّ بِشَىءٍ قَدْ كَتَـبَهُ اللَّهُ لَكَ .. وَلَوِ اجْتَمَـعُوا عَلَى أَنْ يَضُـرُّوكَ بِشَىءٍ ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَىءٍ قَـدْ كَـتَبَـهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، جَفَّتِ الأَقْلاَمُ وطُوِيَتِ الصُّحُفُ » .

ومن معانى « **أن يسلم لله قلبك** » : الآية القرآنية الكريمة : ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ**﴾[1] كل المُلك . . اليسير من أمر المُلك ، والعظيم من أمر المُلك . فالعين من ملك الله ، والبصر فى العين من ملك الله ، والأذن من ملك الله ، والسمع فى الأذن من ملك الله . . القوة من ملك الله ، والذكاء من ملك الله ، والمال من ملك الله ، والجاه والقوة . . كل هذا من ملك الله .

﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2] .

كل هذا من ملك الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكل هذا من معانى : «**أن يسلم لله قلبك**» . .

وإذا أردت أن تختصر معنى « **أن يسلم لله قلبك** » تقول ما قاله

(١ ، ٢) سورة آل عمران : ٢٦ .

الإمام **البيرونى** ، أعظم عقلية ظهرت على وجه التاريخ ؛ بشهادة علماء أوربا .

سئل البيرونى : هل تستطيع أن تعبِّر عن الإسلام بكلمة واحدة؟

قال : نعم . . « **التوحيد** » . .

كل هذه المعانى تتبلور أيضاً فى كلمة أخرى واحدة هى شعار المسلمين هى كلمة التوحيد ، هى أشهد ألاَّ إله إلا الله ، فمعناها الحقيقى هو أن يسلم لله قلبك ، وأشهد ألاَّ إله إلا الله من معانيها **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**(1) . . ومن معانيها : التوحيد ، ومن معانيها : السجود ؛ وهو أن يسجد القلب لله ـ سبحانه وتعالى ـ « **وَلِلْقَلْبِ سُجُودٌ كَمَا لِلْجَبْهَةِ سُجُودٌ** » . .

ومعنى سجود القلب : الخشوع الكامل لله سبحانه وتعالى .

« **أن يسلم لله قلبك** » هذا هو الأساس ـ كما قلنا ـ للأخلاق الإسلامية ، وإذا أردنا شيئاً من التفصيل فى معنى « **أن يسلم لله قلبك** » فإنَّا نقول ما قاله الله سبحانه وتعالى آمراً به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(2) .

«الصلاة» هنا هى الصلاة العادية التى نعرفها من قيام وركوع

---

(1) سورة الفاتحة : 5 .

(2) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

وسجود ؛ ولكن من وراء هذا المعنى أيضاً : أن الصلاة هى الصلة بالله سبحانه وتعالى . .

ومعنى هذا : أن تكون على صلة بالله سبحانه وتعالى بقلبك ، فالصلاة رمز لأعمال القلوب كما أنها ـ فى حقيقتها ـ الصلاة المفروضة .

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي** ﴾ [1] . . و«النُّسك» معناه الحقيقى العادى : البذل والتضحية والفداء وأعمال الجوارح وأعمال القلوب ـ إذا خلصت لله سبحانه وتعالى .

ولكن ليس ذلك فحسب ، وإنما : يعمِّم الله سبحانه وتعالى الأمر تعميماً فيقول : ﴿**وَمَحْيَايَ**﴾[2] : حياته بأكملها ، حياته نوماً ويقظةً ، حركةً وسكوناً ، حياته قولاً وصمتاً ، حياته خطوات حياته أنفاساً . حياته بأكملها خلصت لله سبحانه وتعالى .

وليست حياته فقط ، وإنما : مماته أيضاً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان لله . . ففى سبيل الله هذه الحياة التى تَمحَّضت لله سبحانه وتعالى . هى قمة الفضيلة . . هى قمة الأخلاق .

ومن المناسب هنا أن نتحدث ـ فى كلمات وجيزة ـ عن قول رسول الله ﷺ :

« **إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ** » .

(١ ، ٢) سورة الأنعام : ١٦٢ .

هذا الحديث الشريف لا يقول: إنما بُعثْتُ لأنشرَ الأخلاق. ليس هذا هو اللفظ النبوى، إنما اللفظ النبوَى: « **إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخْلاَق** ».

ولا يقول: إنما بُعثت لأتم الأخلاق. كلَّا، وإنما يقول: لأتمم مكارم الأخلاق.

ومعنى هذا أن مكارم الأخلاق لم تكن قد تمت قبله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم تكن قد تمت فى شخص من الأشخاص، ولا فى رسول، ولا فى نبىّ، لم تكن مكارم الأخلاق قد تمت، وكان العالم ناقصاً مادةً وروحاً، كان ينقصه مكارم الأخلاق، فلمَّا وُجد رسول الله ﷺ كَمُلَ العالم.. لأنه تَمَّمَ مكارم الأخلاق.

لو لم يُبعث رسول الله ﷺ لظلت مكارم الأخلاق ناقصة ولظل العالم ناقصاً. فلما بُعث تَمَّمَ مكارم الأخلاق؛ تَمَّمَهَا بذاته، أى: بسلوكه، وتَمَّمَهَا بقوله، أى: بأحاديثه. كان العالم ناقصاً، كان ينقصه أن يتعطر جوه بأزكى الأرواح. لم تكن أزكى الأرواح قد وُجدتْ بعد..

وكان ينقصه أن تتعطر مادته بأزكى الأجساد، فلمّا وُجد رسول الله ﷺ تمّ أسمى شىء فى العالم تمت مكارم الأخلاق: فتمَّ العالم مادةً، وتمَّ العالم روحاً، إذْ وُجدتْ فيه أزكى الأرواح ووُجد فيه أزكى الأجساد.

صلوات الله وسلامه عليك يا سيِّدى يا رسول الله؛ إنما بُعثتَ لتتمِّمَ مكارمَ الأخلاق.

ومكارم الأخلاق التى بُعثتَ لتتميمها إنما هى أن يتمحَّض الإنسان تمحُّضاً كاملاً لله سبحانه وتعالى.. أن يكون الإنسان ربَّانياً خالصاً لله سبحانه وتعالى.

قلنا: إن الإسلام هو أن يسلم لله قلبك.. **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**(١)، وهو التوحيد، وهو السجود لله سبحانه وتعالى، وهو أشهد ألاَّ إله إلا الله.. كل هذه معانى الإسلام.

والتوحيد يتحدث عنه القرآن كثيراً، وفى سورة قصيرة، ولكنها كاملة تامة شاملة عامة هى **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**(٢).

فى ليلة من الليالى، قال رسول الله ﷺ للصحابة بعد صلاة العشاء:

« **احْشِدُوا - بمعنى (اسْتَعِدُّوا) - سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآن** ».

واستعدَّ الصحابة: بعضهم راح يعدُّ لنفسه غطاء وفرشاً، وبعضهم أحضر ماء ليشرب إذا عطش، كل منهم استعدَّ، فإن الرسول سيقرأ عليهم ثلث القرآن إلى الفجر تقريباً. فقرأ عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**(٣). ثم ذهب إلى بيته.

---

(١) سورة الفاتحة: ٥.

(٢، ٣) سورة الإخلاص.

فقال الصحابة : ثمة أمر حدث .

بعد فترة من الزمن عاد إليهم وقال لهم : « **مَاذا تَنتظرون ؟** » .

قالوا : إنك قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن .

قال : « **والَّذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدهِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**[1] **تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرآن** » .

وفى يوم من الأيام جىء لرسول الله ﷺ برجل يقرأ **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**[2] فى كل صلاة ، لا يكاد يتعداها إلى قراءة غيرها . .

وسأله رسول الله ﷺ : « **لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ يَا رَجُل ؟** » .

فقال : إنى أحبها ، لأنها وَصْفُ الله سبحانه وتعالى .

فقال ﷺ : « **حُبُّكَ إيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّة** » .

من يحب **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**[3] يحب التوحيد ، والمسلم يجب أن يكون موحِّداً خالصاً لله سبحانه وتعالى .

ولنتأمل قليلاً فى بعض معانى **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**[4] ، فى هذه السورة التى تصف الله سبحانه وتعالى :

لم يقل الله : «قل هو الله واحد» ، ولكن قال : **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**[5] . . هل هناك فرق بين واحد وأحد ؟ ما معنى «أحد» ؟

(١ ـ ٥) سورة الإخلاص .

إن معناها يتضح إذا شرحنا معنى «واحد» . . محمد أو حسن يوصف بأنه واحد، ولكن مع ذلك له رأس والرأس جزء، وله عينان وكل عين جزء، وله ذراعان، وله رِجْلان، وله كل هذه الأجزاء، ولكنه واحد.

أى أن كلمة «واحد» لا تمنع أن يكون له أجزاء . . أما «أحد» فإنها تمنع ذلك كليَّةً . . لا أجزاء له ولا تركيب فيه ـ نفت أولاً الشريك، ونفت التركيب.

﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾[1] . . الذى يُلْجَأُ إليه فى كل الأمور:

« **إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّه** » . .

لأنه الصمد الذى تتجه إليه الآمال وتتجه إليه المطالب وتتجه إليه الحاجات، وهو وحده الذى تتجه إليه آمال الإنسان، يسيرةً كانت أو عظيمةً.

﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾[2] وحاشاه، ﴿**وَلَمْ يُولَدْ**﴾[3] وحاشاه، ليس له ابنٌ ولم يكن له أبٌ؛ فهو لم يُولد.

وتقرير هذه الحقيقة وتنزيه الله عن الولد يتكرر فى القرآن بصور أقوى ما تكون:

﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾[4].

(١ ـ ٣) من سورة الإخلاص .   (٤) سورة مريم: ٨٨ ـ ٩٢ .

هذه الآيات تستبعد وتستنكر أن يكون لله ولد : إنه أزلىٌّ وأبدىٌّ ودائمٌ ولم يكن مخلوقاً . .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1] . . ليس له مثيل ، وليس له ندٌّ ، وليس له شبيه ، إنه وحده الذى يخلق ويرزق ويعطى ويمنع وهو الذى تتجه إليه الآمال . .

وأنتم تعلمون من عادات الريف ، بل من الفطرة : الاحتياج إلى الولد للمساعدة والعون ، والمساعدة تعنى الحاجة ، وذلك نقص فينا ، ولو كنا كاملين لما احتجنا إلى الولد . والله - سبحانه وتعالى - كامل لا ينقصه شيء ؛ فهو سبحانه وحده ، هو الكمال الكامل غير ناقص ، غير محتاج إلى الابن .

نرجع إلى بيان أن سورة :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[2] . . تعدل ثلث القرآن لأنها تقرِّر العقيدة .

بعد ذلك نسأل أنفسنا:

- ما أهم صفة يتحلَّى بها المسلم الذى أسلم قلبه لله تعالى ؟ . .
- هل هى السلبية ؟ . .

لا . . إنها الجهاد ، والجهاد ليس سلبياً ، فبمجرد أن تسلم قلبك لله تنخرط فى سلك المجاهدين .

(١ ، ٢) من سورة الإخلاص .

إن العلامة التى توضّح إن كنت قد أسلمت قلبك لله أم لا : الجهاد مع المجاهدين . .

ونحن أبعد ما نكون فى جهودنا وفى عموم أحوالنا عن صفة الجهاد . .

أضرب مثلاً يمثّل الجهاد اليسير ومع ذلك نحن لا نقوم به :

نحن قد تضيق صدورنا بأمور « التليفزيون » أو الإذاعة أو الجرائد ، وفى العمل اليومى - فى الشارع أو فى المكتب أو فى الديوان - قد تضيق صدورنا بأمور نراها أو نسمعها أو نشاهدها ، ومع ذلك لا يتحرك أحد منا لكتابة كلمة إلى المسئولين أو برقية .

جاء رجل يبايع رسول الله ﷺ . . قال له : أبايعك على الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « **والنُّصْح** » .

فمن شروط الإسلام النصح لكل مسلم . عندما ترى شيئًا تضيق به صدراً عَبِّرْ فى كلمة ، أو فى حديث مع المسئولين . . لكنك لا تفعل .

إن أحد كبار المسئولين فى الإذاعة قال لى : إن هناك بلاداً إذا حدث مجرد همسة ؛ وردت فيها مئات البرقيات للاحتجاج . . ولكن - هنا - إذا هُدم ركن من أركان «الإسلام» لا تأتينا برقية ، ولا خطاب ، ولا احتجاج . .

المسلمون متكاسلون متواكلون .

مثال آخر :

قرأت مقالة ليست مستقيمة، رأيت رسماً «كاريكاتورياً» فى «التليفزيون» أو فى وسائل الإعلام يتهكم على الإسلام. إنك لا تهتم.. لا أحد يكتب احتجاجاً.. مع أنه لا خوف الآن من «القبض» ولا من الاعتقال على من يكتب!

أين من يجاهد بلسانه؟!.. مع أن أخصَّ صفة لمن أسلم قلبه لله تعالى : (الجهاد).

والجهاد أنواع كثيرة.. جهاد النفس لكى تتزكَّى.. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1]..

أى : زكَّى نفسه.

وجهاد الأسرة لكى تستقيم، وهذه مسئولية الأب ومسئولية الأم، ومسئولية الابن الراشد.. وكل أفراد الأسرة ـ جميعها ـ متضامنون فى المسئولية ؛ لتستقيم الأسرة، وكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيَّته.

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[2]..

نقى أنفسنا بالجهاد ونرشد أهلينا إلى الفضائل ونبعدهم عن الرذائل، فذلك وقاية لهم من النار.

---

(١) سورة الشمس: ٩.

(٢) سورة التحريم: ٦.

جهاد النفس لكى تتزكَّى(من علامات الإسلام) ، وجهاد الأسرة لكى تستقيم أمورها (من علامات الإسلام) والجهاد فى المجتمع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وله درجاته.

ويقول رسول الله ﷺ :

« **مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إلَى أُمَّتِهِ ؛ إلاَّ وَكَانَ لَهُ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ** . . » . .

[الطبقة الأولى : **الحواريون** . . وطبقة **الأصحاب** : الطبقة المؤمنة] .

« . . **يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ ، وَيَقْتَدُونَ بِسُنَّتِهِ ، ثُمَّ إنَّهُ تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ** » .

ـ ما الموقف بالنسبة لهؤلاء ؟ . .

مَنْ جاهدهم بيده فهو مؤمن . . ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . لابد من الجهاد باليد ، وذلك شأن الحاكم ـ والأمر ليس فوضى فى الإسلام ـ واحد يجاهر بالمنكر يواجهه الحاكم باليد ، بالسلطة ، وبالحبس ، وبالسجن .

ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . . والجهاد باللسان هو النصيحة والإرشاد والهداية .

«**وَلأَنْ يَهْدِىَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** » .

وهذا الجهاد باللسان هل هو من مهمة علماء الأزهر والوعاظ والأئمة فحسب ؟! . . ليس الأمر كذلك، لماذا ؟ . .

لأن المسئولية تترتب على المعرفة . . هذه قاعدة عامة ، أو مطلقة ؛ فمعرفتي أنا مثلاً بحرمة الخمر كمعرفة أيِّ شخص من الشعب . . ومعرفتي هي مسئوليتي فيما يتعلق بالجهاد .

والمسئولية على كل من يعرف أن الخمر حرام . وكلنا مسئول أمام الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بهذا الأمر : نساءً ورجالاً وشباباً وشابات ؛ لأن المسئولية تترتب على المعرفة .

الخمر لعنها الله والرسول ﷺ ومنها « البيرة » ولسنا في حاجة لأن نؤكد ذلك، ولسنا نحن فقط الذين نقول عنها ذلك ؛ المؤتمرات التي تُعقد في أمريكا ، والتي يحضرها علماء النفس والاجتماع، ويحضرها الكيميائيون والأطباء والصيادلة، تقرر هذه المؤتمرات أن البيرة نوع من الخمر، والخمر يلعنها الله في نفسها كَمَادَّة ويلعنها في شاربها ، ويلعنها في عاصرها وفي حاملها، يلعنها في كل الظروف وفي كل الملابسات . . الخمر حرام من رجس الشيطان، إنها أم الخبائث - كما يقول التعبير الشعبي .

حدث أمر في غاية الغرابة : شركة مصر للطيران حدث فيها أن بعض الضُبَّاط الطَيَّارين امتنعوا عن حمل الخمر في الطائرات لأنه

حرام، كنت أتصور أن ترسل إليهم الشركة «جواب شكر» لاهتمامهم بدينهم وامتناعهم عن حمل الخمر لأن حملها يضر وقد يسبب كارثة . .

ماذا فعلت شركة الطيران ؟ . . نكَّلت بهم . . واحد منهم مستقر فى القاهرة مع أسرته نقلته إلى أسوان . . والثانى نقلته إلى الأقصر . . وتهديدات لا حصر لها بالغرامة والفصل وبما يضر الموظف .

ويأتى هؤلاء إلى الأزهر . . ويكتب شيخ الأزهر خطاباً إلى مدير شركة الطيران ويبيِّن له حكم الله فى هذا الأمر، وأن هؤلاء الناس فُضَلاء . . لكن لم تستجب الشركة .

وأنتم تعلمون أن الأزهر ليس سلطة تنفيذية، وهذا الخطاب نُشر فى الصحف . . كنت أتوقع بعد نشره ومعرفة الصغير والكبير له أن يتصل أحد المسئولين بالشركة ويقول لهم « اختشوا على أنفسكم » . .

ـ لماذا تتشبث الشركة بالخمر ؟ . .

تقول : من أجل السائحين .

وهذا كذب، فالشركة السعودية لا تحمل الخمر، ولا تبيع الخمر، ولا تشترى الخمر، والإقبال على الشركة السعودية أكثر من الشركة المصرية .

هذا مثال ننقله - في صورة عابرة - يبيِّن أننا - فيما يتعلق بالجهاد - لا نقيمه كما ينبغي . .

الجهاد باللسان واجب يترتب على المعرفة ، وما دام كلنا يعرف فالمسئولية علينا جميعاً وليست المسئولية فحسب على الوعاظ من علماء الأزهر .

والمسئولية تترتب على المعرفة وليست على المهنة لأنها إيمان وإسلام .

أما الجهاد بالقلب فهو بالنسبة لنا جميعاً أضعف الإيمان ، لكنه ليس سلبياً . . فأنت حينما ترى المنكر تسير في طريقك وتستعيذ بالله وتقول : الحمد لله الذي عافاني من هذا . بهذا تكون آثماً وليس قولك هذا جهاداً بالقلب . .

المسئولية هي النصيحة فإن لم تستطع تأتي مرحلة الجهاد بالقلب . فإذا كان المخالف للدين تاجراً فلا تشترِ منه . . وإذا اشتريت منه فأنت آثم ، وإذا كنت أنت التاجر وهو الشاري فلا تَبِعْ له (والله يعوّض) ، وإذا كان مرشَّحاً في الإدارة أو في البرلمان فلا تنتخبه ولا تصاحبه ولا ترافقه .

كل هذا منبثق من أنك تسلم لله قلبك . . إذا أسلمت فالجهاد هو الصفة الأساسية التي تنبثق من القلب عندما تتحدث بهذه الصورة .

بعض الناس يتشاءمون . . الجهاد فى الإسلام جهاد متفائل ، والشخص المتفائل هو الذى يفعل ويسعى ويجتهد ، والشخص المتشائم خامل : تشاؤمه يجعله فى كسل وفتور ؛ ولذا فالجهاد الإسلامى متفائل .

وهناك صورة نختم بها الحديث عن الجهاد المتفائل فى غزوة الأحزاب :

اليهود ألَّبوا الجزيرة العربية على المسلمين فى المدينة . . والمسلمون فى المدينة عددهم محدود ، وذلك فى السنة الخامسة من الهجرة . واليهود بمالهم وبمكرهم وبخبثهم كانوا بالجزيرة العربية يؤلِّبون على الإسلام . وجيَّشت القبائل جيوشها الجرَّارة بما عندها من العَدد والعُدَّة . . وتأتى هذه الجيوش نحو المدينة لتقضى عليها دنيا وديناً وتسوِّيها بالأرض . .

لم يكن فى هذا العمل شهامة ، أو مروءة . . تأتى كل هذه الجيوش لتقضى على قرية صغيرة . . ماذا فعل المسلمون ؟ . .

شاور الرسول ﷺ الصحابة ، وانتهى أمر المشورة بالاتفاق على أن يحفروا خندقاً . . فليُحفر الخندق .

وكان الرسول ﷺ يحمل التراب معهم على كتفه ، ويفعل كما يفعل الآخرون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وكبار الصحابة ، وكلهم يحفرون الخندق . .

أقطع الحديث دقائق لأقص قصة أحد الصحابة : رأى رجل

رسول الله ﷺ يلوح عليه شيء من الإجهاد فذهب إلى زوجته وقال لها : أليس عندك طعام أدعو إليه رسول الله ﷺ ؟

فقالت إن عندها ماعزاً . . وعندها مقداراً من الدقيق . وهذا يكفي رسول الله ﷺ وعدداً قليلاً معه . .

وذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ ودعاه وقال له : وليكن معك اثنان أو ثلاثة . . وإذا برسول الله ﷺ يقول للجميع وكانوا حوالى سبعين أو ثمانين شخصاً : هَيَّا إلى طعام فلان .

أُحرج الرجل . . ماذا يقول الرجل ؟ . .

سبق الصحابي وراح لامرأته مضطرباً خَجِلاً وقال لها : حدث كذا وكذا . .

فسألته : هل قلت لرسول الله : المقدار كذا وكذا ؟

قال : نعم .

فقالت له : هو أعلم بشأنه .

وجاء رسول الله ﷺ وأخذ هو الطعام - (الدقيق معمول خبزاً والماعز مشوي) - أخذ الطعام وقال لأحد الصحابة : أدخلْ عشراً ، وأخذ يعطيهم ، فأكلوا ، ثم أدخل عشرة ثانية ، وعشرة ثالثة ، إلى أن أكل الجميع وبقي لأهل البيت طعام كثير .

هذا الذي أقصُّه ليس حديثاً ضعيفاً وليس من الأحاديث التي تُترك ، روته كتب السُّنَّة مثل البخاري ومسلم ، وهو صحيح .

كانوا يحفرون الخندق وقد قسَّموا الخندق لكل قسم مجموعة من الصحابة يختصون بحفره، والرسول ﷺ يعمل كما يعمل الآخرون، فاعترضت طائفة منهم صخرة لا تعمل فيها المعاول، ولو تُركت يمكن أن تكون مَعْبراً للجيوش المعادية، فأقبلوا على رسول الله ﷺ ، وحدَّثوه عن الصخرة ، فأخذ المعْوَل - وهو قويٌّ روحيّاً - وقال : « **بسم اللّه الرحمن الرحيم** »، وضرب الصخرة فانهار جزء منها ، فقال :

« **الحمدُ للّه، فُتحَتْ فَارِس ، وإنِّى لأرَى المَدائِنَ وأرَى قَصْرَها الأبيضَ مِنْ مَكانى هَذا** ».

ثم قال : «**بسم اللّه الرحمن الرحيم**»، وهوى بالمعول فانهار جزء ثان، وقال الرسول ﷺ :

« **فُتحَتِ الشَّام .. واللهِ إنِّى لأرَى قُصُورَها الحُمْرَ مِنْ مَكانى هَذا** ».

ثم هوى بالمعول مرة ثالثة فانهارت الصخرة . . قال :

«**الحمدُ للّه .. فُتِحَتِ اليَمن ، وإنِّى لأرَى أبوابَ صَنْعَاء** ».

وكان سلمان الفارسى بجواره فقال له رسول الله ﷺ :

« **هذهِ فُتوحٌ يَفتحُها اللّهُ عَلَى المُسْلِمين** ».

فكانَ سلمان ، فيما بعد - فى عهد سيدنا عمر - حاكماً على المدائن متربعاً فى قصرها الأبيض يقصُّ هذه القصة ويقول فى نهايتها : صدقَ رسول الله ﷺ .

هذا هو الجهاد المتفائل ، هذه هى النتائج لمن أسلم قلبه لله . هذه هى النتائج . . نتائج وثمرات للفرد والأسرة . .

للفرد باعتباره فرداً، والأسرة باعتبارها أسرة، وللمجتمع كله .

فإذا أسلم الفرد قلبه لله، وإذا أسلمت الأسرة قلبها لله ، وإذا أسلم المجتمع قلبه لله . هكذا ينالون النصر وسعة الرزق وحماية الله سبحانه وتعالى وتوفيقه ورعايته .

كل ذلك يحيط بالفرد إذا أسلم قلبه لله ، وبالأسرة إذا أسلمت وجهها وقلبها لله، وبالمجتمع إذا أسلم قلبه لله .

هناك قضيتان: قضية النصر ، وقضية استمرار النصر .

فى القرآن قوانين النصر ، وقوانين استمرار النصر :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾(١) . . هذا قانون النصر . .

واستمرار النصر يتوقف على هؤلاء :

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾(٢) . . وبعدوا عن اللهو والملاهى . .

﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(٣) .

---

(١) سورة النور : ٥٥ .
(٢ ، ٣) سورة الحج : ٤١ .

أيها الإخوة المؤمنون :

إننا إذا أسلمنا قلوبنا لله سبحانه وتعالى ، وانتهى بنا الأمر إلى أن نجاهد فى سبيله فإن الله سبحانه وتعالى يتكفل لنا بكل خير .

إن قوله تعالى : ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1] لا يحدُّه حدود : بَشِّرهم بالنصر ، بَشِّرهم بالفوز ، وبَشِّرهم بسعة الرزق ، بَشِّرهم بمغفرة الله . . وبحب الله . . وبرحمة الله . . وبشِّرهم برضوان الله ، وبشِّرهم بكل خير .

وفى نهاية حديثنا هذا : نتقرب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالخطوة الأولى فى تاريخ القــرب منه . . وهى **التوبة الصادقة الخالصة النصوح.**

فى هذه الليلة المباركة من شهر ربيع الأول ، شهر رسول الله ﷺ نرجو الله سبحانه وتعالى أن يمنَّ علينا بقبول التوبة .

نقول جميعاً :

* تُبنا إلى الله . . ورجعنا إلى الله . . وندمنا على ما فعلنا . . وعزمنا على ألاَّ نعود للذنب أبداً . . ونحن بريئون من كل دين يخالف دين الإسلام ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن سيِّدنا محمداً ﷺ رسول الله . . رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبسيِّدنا محمد ﷺ نبيّاً ورسولاً .

---

(١) سورة التوبة : ١١٢ .

* اللهمَّ صَلِّ على سيِّدنا محمد . . الحبيب ، الشفيع ، الرؤوف ، الرحيم ، الذى أخبر عن ربه الكريم أن الله تعالى فى كل نفس مائة ألف فَرَج قريب . اللهمَّ صَلِّ على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً ، وكُنْ بنا وبالمؤمنين رؤوفاً رحيماً .

الصلاة الأولى هى صلاة الفرج . .

والصلاة الثانية ذكرها أحد الصالحين ، ولىٌّ من أولياء الله ، كان يرى رسول الله ﷺ فى الرؤيا ، فقال : فى المرة المقبلة حينما أراه أسأله عن الصلاة التى أصلِّيها عليه . فكانت هى التى علَّمها إياه رسول الله ﷺ . .

والصلاة الثالثة للشيخ المدبولى ، من أولياء الله . . وهذه الصلاة من أجمل الصلوات :

« اللهمَّ إنَّا نسألكَ بكَ أَنْ تُصَلِّـيَ وتُسَلِّمَ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، وعَلَى سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِينَ .. وعَلَى آلِهِمْ ، وصَحْبِهِمْ ، أَجْمَعِين .. وأَنْ تَغْفِرَ لَنَا مَا مَضَى ، وأَنْ تَحْفَظَنَا فِيمَا بَقِيَ .. بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين » .

والحمد لله ..

* * *

مراجع الكتاب

* القرآن الكريم .

١- تفسير القرآن العظيم - لابن كثير .

٢- روح المعانى - للآلوسى .

٣- الجامع لأحكام القرآن - للقرطبى .

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - للبيضاوى .

٥- الكشاف - للزمخشرى .

٦- مفردات القرآن - للراغب الأصفهانى .

٧- تفسير القرآن الكريم - للشيخ محمد عبده .

٨- فتح البارى بشرح صحيح البخارى - لابن حجر العسقلانى .

٩- صحيح الإمام مسلم .

١٠- المستدرك على الصحيحين - للحاكم النيسابورى .

١١- المسند - للإمام أحمد بن حنبل .

١٢- صحيح ابن حبَّان .

١٣- الجامع الصحيح - للإمام الترمذى .

١٤- سنن أبى داود .

١٥- سنن ابن ماجه .

١٦- سنن النسائى .

١٧- سنن الدارمى .

١٨- السنن الكبرى - للبيهقى .

١٩ ـ شُعب الإيمان ـ للبيهقى .
٢٠ ـ المعجم الكبير ـ للطبرانى .
٢١ ـ المصنف ـ لابن أبى شيبة .
٢٢ ـ الأم ـ للإمام الشافعى .
٢٣ ـ الرسالة ـ للإمام الشافعى .
٢٤ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام .
٢٥ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ لأبى نعيم الأصبهانى .
٢٦ ـ الطبقات الكبرى ـ لابن سعد .
٢٧ ـ معجم الأدباء ـ لياقوت الحموى .
٢٨ ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ للقفطى .
٢٩ ـ الفكاهة ـ للزبير بن بكار .
٣٠ ـ الشوقيات ـ لأحمد شوقى .
٣١ ـ إحياء علوم الدين ـ للإمام أبى حامد الغزالى .
٣٢ ـ المنقذ من الضلال ـ للإمام أبى حامد الغزالى .
٣٣ ـ تهافت الفلاسفة ـ للإمام أبى حامد الغزالى .
٣٤ ـ حىّ بن يقظان ـ لابن طفيل .
٣٥ ـ الإشارات والتنبيهات ـ لابن سينا .
٣٦ ـ فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ـ لابن رشد .
٣٧ ـ الرعاية ـ للمحاسبى .
٣٨ ـ فهم القرآن ـ للمحاسبى .

٣٩ ـ لطائف الإشارات ـ للقشيرى .
٤٠ ـ الجمهورية ـ لأفلاطون .
٤١ ـ الفلسفة اليونانية ـ لألبير ريفو .
٤٢ ـ تاريخ الفلسفة الغربية ـ لبرتراند رسل .
٤٣ ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ ليوسف كرم .
٤٤ ـ المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ـ لأندريه كريسون .
٤٥ ـ الأخلاق وعلم العادات ـ لليفى بروهل .
٤٦ ـ الرد على المنطقيين ـ للإمام ابن تيمية .
٤٧ ـ الفتاوى ـ للإمام ابن تيمية .
٤٨ ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل ـ للإمام ابن حزم .
٤٩ ـ الدين والوحى والإسلام ـ للشيخ مصطفى عبدالرازق .
٥٠ ـ قصة النزاع بين الدين والفلسفة ـ للدكتور توفيق الطويل .
٥١ ـ بناء الإنسانية ـ لبريفولت .
٥٢ ـ تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ـ للدكتور محمد إقبال .
٥٣ ـ محاضرات فى العلوم عند العرب ـ للدكتور عبد الحليم منتصر .
٥٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية .
٥٥ ـ مجلة «الرسالة الإسلامية» ـ وزارة الأوقاف بالعراق .

***

محتويات الكتاب



7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043